القرآن
معجزة المعجزات
ما فرطنا في الكتاب من شيء
للداعية الإسلامى الكبير
أحمد ديدات
عبد السلام هارون
مكتبة القرآن



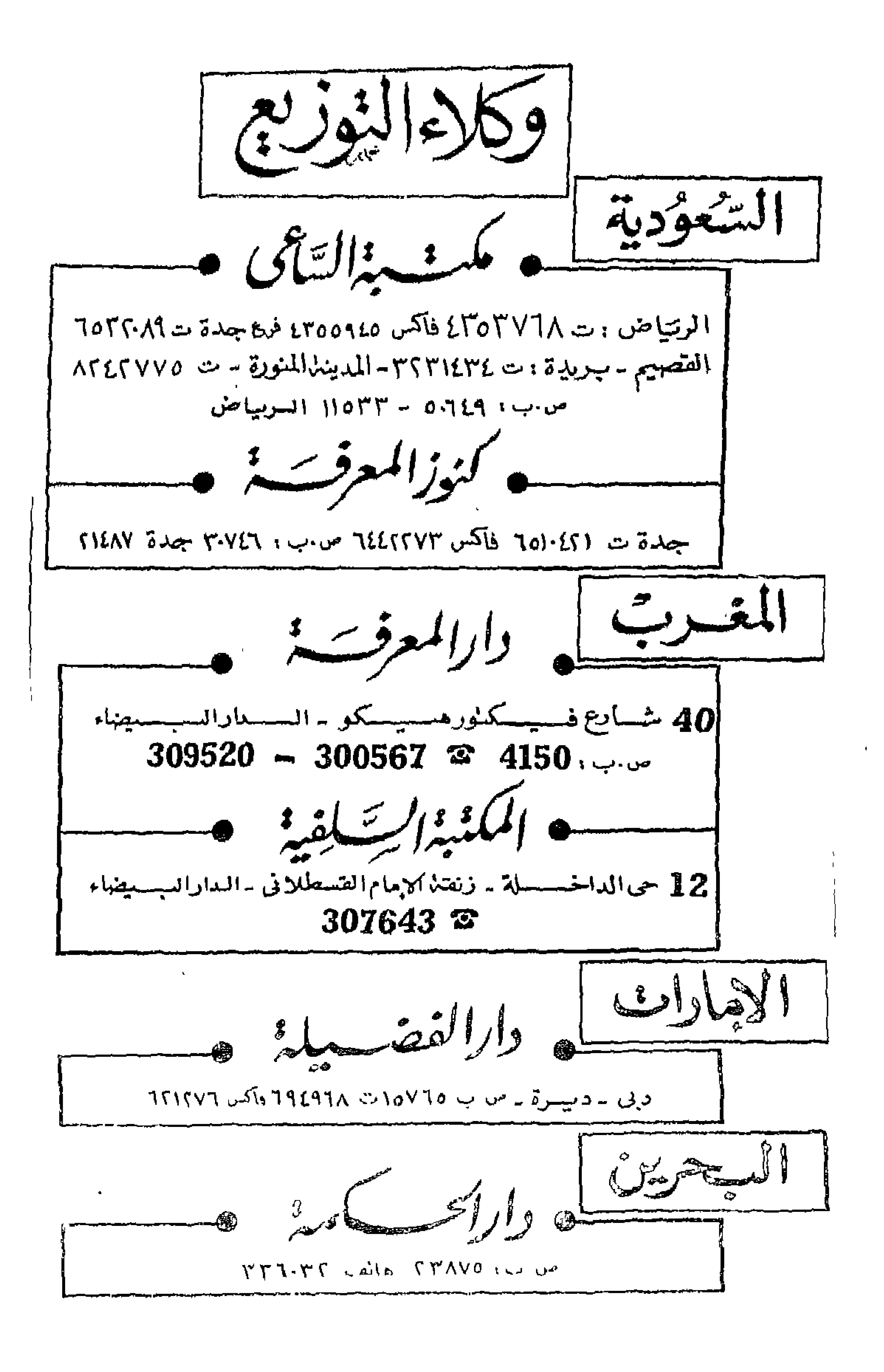
للداعية الإسلامي الكبير

أحمد ديدات

نقله إلى العربية

د. نبيل عبد السلام هارون

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق أبو العلا
القاهرة - ت: ٧٦١١٩٦٢ - ٧٦٨٥٩١٠ فاكس ٢٤٠٤٠١٣



وكلاء التوزيع

السعودية

مكتبة الساعي

الرياض : ت ٤٣٥٣٧٦٨ فاكس ٤٣٥٥٩٤٥ فرع جدة ت ٦٥٣٢٠٨٩
القصيم - بريدة : ت ٣٢٣١٤٣٤ - المدينة المنورة - ت ٨٢٤٢٧٧٥
ص.ب : ٥٠٦٤٩ - ١١٥٣٣ الرياض

كنوز المعرفة

جدة ت ٦٥١٠٤٢١ فاكس ٦٤٤٢٢٧٣ ص.ب : ٣٠٧٤٦ جدة ٢١٤٨٧

المغرب

دار المعرفة

40 شارع فيكتور هيكو - الدار البيضاء
ص.ب : 4150 ☎ 300567 - 309520

المكتبة السلفية

12 حي الداخلة - زنقة الإمام القسطلاني - الدار البيضاء
☎ 307643

الإمارات

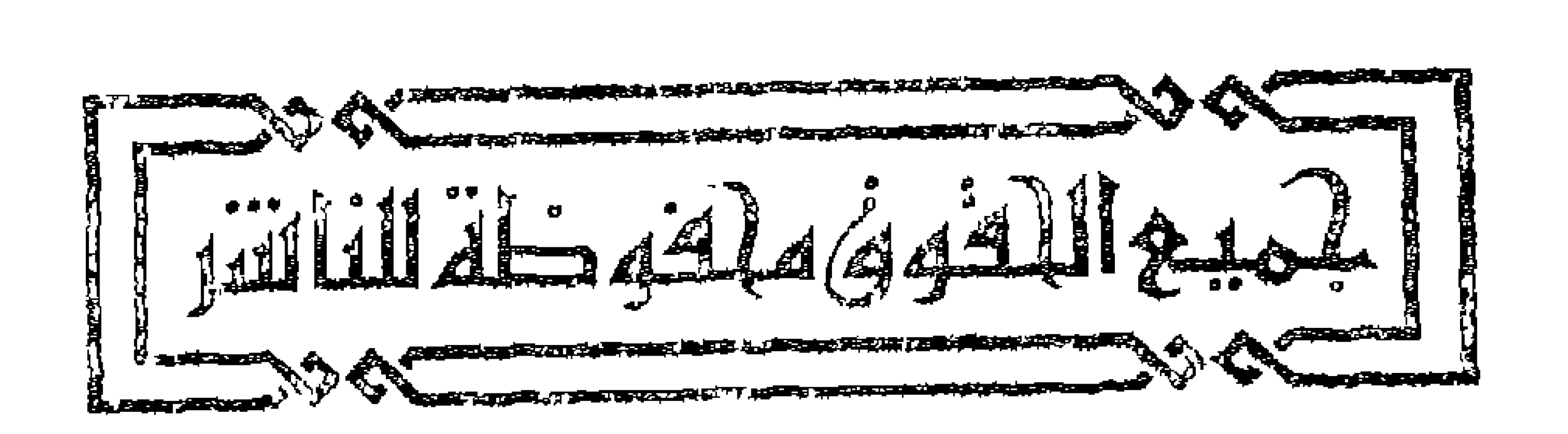
دار الفضيلة

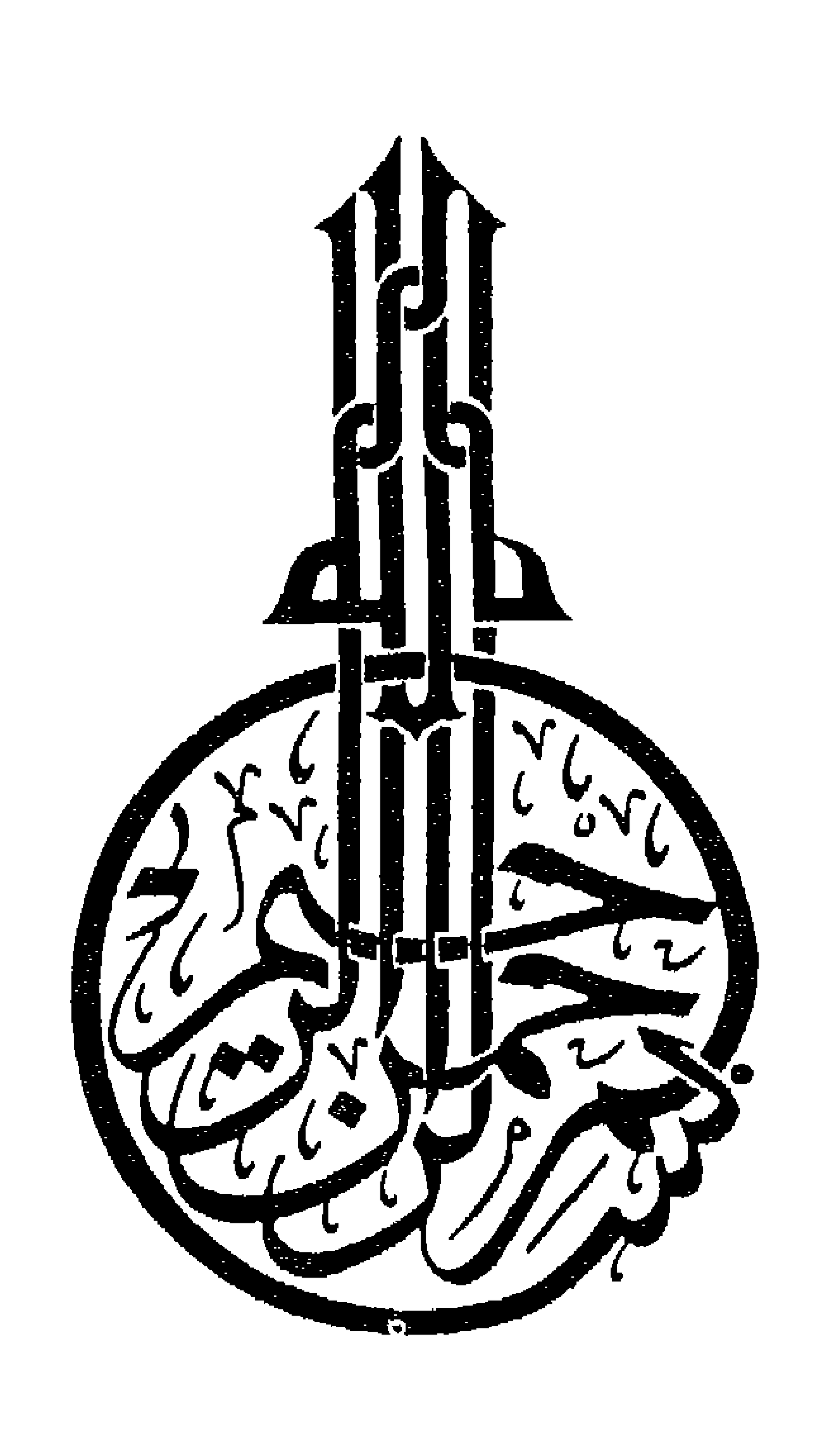
دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

البحرين

دار الحكمة

ص ب ٢٣٨٧٥ هاتف ٣٢٦٠٣٢




بسم الله الرحمن الرحيم



تقـــديـــم

هذه صورة واضحة مباشرة لإعجاز القرآن يدركها بسهولة ويسر كل من يقرأ القرآن ، أو يستمع إليه بأذن صاغية ، وحِسّ مرهف ، وعقل مفتوح كما يقول الداعية الإسلامى أحمد ديدات .

لقد بهرته بعض وجوه الإعجاز فسجلها لنا كما عاشها وقال : « قد حاولت فى هذا الكتاب أن أعرض بعض وجوه الإعجاز التى بهرتنى كإنسان عادىّ ، ولا شك أن المجال مفتوح لمن هم أفضل منى من العلماء والباحثين وفقهاء المسلمين ليجلوا لنا المزيد من أوجه الإعجاز ، ولعل عمرى يمتد حتى أرى وأقطف ثمار جهودهم ! »

وقد ملأ الداعية أحمد ديدات الدنيا بمؤلفاته ومحاضراته التى شغل الناس بها فى الشرق والغرب ، وقد ترجم بعض تلك المؤلفات إلى العربية ، وها نحن نترجم هذا الكتاب الذى نقدمه لقراء العربية فى كل مكان .

وحديث الداعية أحمد ديدات له مذاق خاص ، وطريقة فى الأداء يمتاز بها ، فهو يمتعك ويقنعك بعذوبة ألفاظه ،

وحسن تصرفه فى وجوه الكلام ، وعمق فهمه لكل ما يتعلق بالديانات .

وإعجاز القرآن ينبوع صاف معطاء اغترف منه القدماء ووجد فيه المحدثون ما يروى ظمأهم ، وقد بدأت الكتابة فى إعجاز القرآن منذ وقت مبكر حين نهض علماء المسلمين للرد على من شككوا فى إعجازه من الزنادقة والملاحدة .

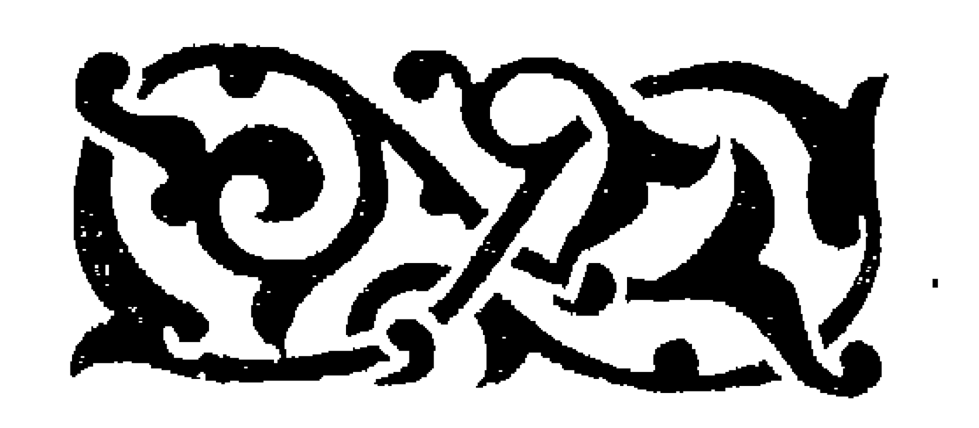
ومن أوائل الذين عالجوا موضوع إعجاز القرآن ابن قتيبة الدينورى فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » والسجستانى فى كتابه : « نظم القرآن » وغيرهما ، وكلها كتب لا تحمل لفظ الإعجاز ، وإن كان محتواها يعالج الموضوع ويرد على الملاحدة .

وكان للمتأخرين محاولات ومحاولات فقد عالج الكثيرون منهم الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى علوم الحياة والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والأرصاد وعلم الأجنة .

إلا أن المجال لم يزل رحبا ، ممتدا فهذه قطرة من بحر العلم فى زمن تحرك فيه علماء المسلمون كل فى تخصصه لاكتناه جوانب الإعجاز وتقديمها فى دراسات تروى ظمأ المتعطشين إلى الإعجاز القرآنى، حتى تكون لدينا بإذن الله موسوعات للإعجاز القرآنى .

فإلى اللقاء مع عمل آخر من أعمال العلماء فى مجال الإعجاز !

إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ..



الفصل الأول

القرآن معجزة التنزيل





يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

فى هذه الآية يتحدى الله العالمين أن يأتوا بمثل معجزة القرآن ، والمعجزة أمر خارق للعادة يُظهره الله على يد نبىّ تأييداً لنبوته .

وتتفاوت المعجزات فى قدرها ؛ فشفاء المرض العُضال قد يكون معجزة ، ولكن رد البصر معجزة بلا جدال ، أما إحياء الموتى فذلك معجزة كبرى !

* المعجزات والأديان :

أرسل الله ــ تعالى ــ منذ فجر الخليقة ــ الأنبياء والمرسلين ، مُبَشرين ومُنذرين ، وما من أمّةٍ جاءها البشير النذير إلا حاولت وكابرت ــ عدا قلة آمنت به ــ وما كانت لِتُؤمن إلا أن ترى الخوارق والمعجزات ، تلمَسُها وتراها رأىَ العين !

كان ذلك شأنَ « بنى إسرائيل » مع نبيهم موسى عليه السلام ، ثم كان ذلك شأنهم مع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذى جاء

أساسا ليُصحّح ما انحرف ، ويُقوِّم ما اعوجّ فى عقائد وأفعال بنى إسرائيل[1] ، فما كان منهم إلا المجادلة التى تعبر عنها هذه الفقرة من إنجيل متّى :

« **حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفِرِّيسيين قائلين : يامعلم ! نريد أن نرى منك آية ؛ فأجاب ، وقال لهم : جيلٌ شرِّير وفاسق ، يطلب آية ، ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبى** »[2] .

[إنجيل متى ١٢/٣٨ ــ ٣٩]

ومع ذلك أيد الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام بالعديد من الخوارق والمعجزات التى روتها الأناجيل ، وأثبتها القرآن الكريم حيث يقول :

﴿ **إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيّدتُك بروح القُدُس تكلِّم الناسَ فى المهد وكهلاً وإذ علّمتُك الكِتابَ والحكمة والتوراةَ والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين** ﴾ [المائدة : ١١٠] .

---

(١) المترجم : جاء على لسان السيد المسيح ــ عليه السلام ــ: « **لم أُرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة** » [إنجيل متى ١٥/٢٤] . ولقد أشار القرآن الكريم إلى رسالته إلى بنى إسرائيل فقال : ﴿ **ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بنى إسرائيل** ﴾ [آل عمران : ٤٨ ــ ٤٩] .

(٢) انظر كتاب المؤلف : "What was the Sign of Jonah" .

أيد الله ــ سبحانه ــ رسوله عيسى ــ عليه السلام ــ بهذه المعجزات لئلا تكون لبنى إسرائيل حجة على الله بعد رسوله إن هم لجُّوا فى عنادهم ، وتمادَوْا فى كفرهم !

*** معجزة الإسلام :**

وبعد قرابة نحو ستة قرون بعث الله رسوله محمد بن عبد الله ــ ﷺ ــ بمكة ليجهر بدعوته إلى العالمين كافة إلى آخر الزمان[٣] ؛ فإذا بالتاريخ يعيد نفسه ، ويقف مشركو مكة ومعهم اليهود والنصارى مواقف بنى إسرائيل من عيسى ــ عليه السلام ــ فيطلبون منه الخوارق والمعجزات ! سنة الله فى خلقه التى لا تتبدل ولا تتحول !

بل سألوا الرسول ــ ﷺ ــ آيات بعينها :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماءَ كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك

---

(٣) يتضح عموم رسالته من قوله ــ تعالى ــ: **﴿ وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾** [سبأ : ٢٨] ، وقوله ــ تعالى ــ: **﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾** [الأعراف : ١٥٨] ، وقوله ــ تعالى ــ: **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾** [الأنبياء: ١٠٧] ، وقوله ــ تعالى ــ: **﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾** [الأحزاب : ٤٠] ، وفى الحديث الشريف : « **كان كل نبى يبعث فى قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود** » .

حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ ــ ٩٣] .

وعلى قدر سفاهتهم فى مطالبهم كان ردُّ السماء توجيهاً للرسول ــ ﷺ ــ بالاستعلاء على جدل أولئك المنافقين ولجاجتهم ، فالمعجزةْ الكبرى ماثلة بين أيديهم ألا وهى : « القرآن الكريم » ، وفى طياته آيات بينات - كل آية منها دليل على صدق الرسالة أمام كل الأجيال إلى قيام الساعة : **﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتْلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾** [العنكبوت : ٥١] .

* *القرآن هو المعجزة :*

يسوق لنا المولى سبحانه وتعالى البراهين الدالة على إعجاز القرآن ، وأبلغها جميعاً أمران :

□ *الأمر الأول : أُمِيَّةُ الرسول ــ ﷺ ــ:*

نجد ذلك فى قوله ــ تعالى ــ: **﴿ وما كنتَ تَتْلو من قبلِه من كتابٍ ولا تَخُطُّه بيمينك إذاً لارْتابَ المُبْطِلون ﴾** [العنكبوت : ٤٨] .

فلم يكنِ الرسولُ الكريمُ لِيعرِفَ القراءةَ والكتابة ، ولا مجردَ التوقيعِ باسمه الشريف !؛ ولو عُرِف عنه شئٌ من ذلك ما سكتَ عنه المشركون ، ولا المرجفون فى زمانه ، وحتى يومِنا هذا ؛ ولأقاموا الحجة على أنه رُبَّما ألّف القرآن بما لديه من علم وثقافة واطلاع ؛

أو ربما اقتبَسه من دراساتِ اليهود والنصارى ، أو ربما اطلع على التوراة والإنجيل والزبور[٤] ، أو ربما تعمَّق فى فلسفاتِ أرسطو وأفلاطون ؛ ولكن أشد أعداء الإسلام ونبيه لم يدّعِ عليه مثلَ هذا الادعاء ، وقد أجمع على أميته المؤرخون من غير المسلمين ، كما لا ننسى أنه من الثابت أن الكتابَ المقدس بعهديه القديم والجديد لم يترجم إلى العربية قبل القرن العاشر الميلادى ؛ أى : الرابع الهجرى .

□ الأمر الثانى : تجانُسُ النصّ القرآنى (أكثر من ٦٠٠٠ آية) :

اقرأ القرآن ، وتدبره ، وقلّبه من أى وِجهةٍ تريد ، تصل دائماً إلى نفس النتيجة : « أنه ليس بقول بشر » ؛ فلا يمكن لبشرٍ أن يواصلَ تأليف كتاب ، يستغرق جمعُه (٢٣ عاماً) من بداية الوحى إلى إتمام الرسالة ، يُبْتَلَى خلالَها بأشقِّ ما مرّ به نبىّ مرسل ، دون أن تتقلّب أفكاره ، وتتبدّلَ مشاعره ، وتختلف أفكاره ، وتتفاوت تعبيراته ، وما كان هذا شأن النصِّ القرآنى ؛ فعلى الرغم من نزول آياتِه منجمة ؛ أى مفرقة ، فى شتّى الأوقاتِ والمناسبات ، فقد اجتمع القرآن عند اكتماله ، بترتيب سُوَرِه ، وترتيب آياته فى السُّور — كما هو الحال فى المصحف — فما اختلف السياق والجَرسُ المُمَيِّزُ لكل سُوَره ، ولكل سورةٍ على حدة ، بما اجتمع فيها من آياتٍ نزلت فى أوقاتٍ ومناسباتٍ متفرقة ، وما تضاربتِ الحقائقُ والأفكارُ والتشريعات بين

---

(٤) المترجم : التى اختفت مصادرها الأصلية تماماً !

سورةٍ وأخرى ، بل تكاملت مع بعضها البعض ، وفَسّر بعضُها بعضاً ، وليس هذا شأنَ أىِّ كتاب بشرى يكتب ، ويجمع بهذه الكيفية ، وطوال تلك المدة !

وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ [النساء : ٨٢] .

* ناحيـة أخـرى !

ومن ناحية أخرى ــ كما سنرى فى الفصل الثانى ــ يَعْرِضُ القرآن ويُشير إلى أمور تتّصلُ بمعارفَ كونية ، لم تكن معروفةً وقتَ نزوله ، ثم أظهرها وأكدها التطور والكشوف العلمية !

ولو كان القرآن من صُنع بشرٍ أُمّى ، أو حتى متعلم فى ذلك الزمان البعيد لنضَحَ بأفكار وخُزَعْبلاتٍ بدائية متضاربة !

لا غَرْوَ إذَن أن يكون القرآن الكريم هو معجزةَ الرسول ــ ﷺ ــ فى مواجهة المشركين ؛ بل هو « معجزة المعجزات » التى يُدرك قدرها كل ذى حكمة وبصيرة ، وذوق أدبى ، وصدق مع النفس !

﴿ **بل هُو آياتٌ بينات فى صدور الذين أُوتوا العِلم وما يَجْحَدُ بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ [العنكبوت : ٤٩] .

الفصل الثاني

القرآن المعجزة العلمية





*** شـهادةُ حَـقّ :**

فى عالم اليوم (ألف مليون) من البشر يؤمنون أن القرآن الكريم كتاب الله المعجِز ، بل إن من ألَدِّ أعداء الإسلام من شَهِدَ بإعجازه ؛ فها هو ذا القسّ « بوسورث سميث » فى كتابه « محمد والديانة المحمدية »[1] يصف القرآن الكريم بأنه : « معجزة فى صفاء الأسلوب وفى حكمته وصدقه »[2]، وهذا كاتب بريطانى آخر « أربرى » تصدى لترجمة القرآن يقول فى تقديمه للترجمة :

« كلما أستمع إلى ترتيل القرآن الكريم ، أشعر كأنى أُنصت إلى نغم ينساب فى لحنٍ موسيقىّ ذى إيقاع متصل ينبض مع دقاتِ قلبى ! » .

ثم يستطرد — فى مقدمته — بعبارات تشهد بإيمانه بالإسلام ، وإن لم يعلن إسلامه !

أما « مارمادوك بيكال » البريطانى الذى اعتنق الإسلام ، فإنه

---

(١) تسمية الإسلام بالديانة المحمدية ، والمسلمين بالمحمدِيِّين تسمية خاطئة لا تخلو من غرض خبيث .

(٢) عندما أقرأ مثل هذه الشهادة يَردُ على ذاكرتى قول الشاعر العربى :

شهدت بفضلك كل العِـــــدَا والفضل ما شهدت به الأعـداء !

يقدم ترجمته للقرآن بهذا الوصف :

« سيمفونيةٌ لا تُدانى ، ولا تُحَاكى ، تستدر الدموع من المآقى ، وتستثير أشجانَ النفس » .

وقد صدرت ترجمته هذه بعد إسلامه ، فلا نقطع أكان وصفه للقرآن فى مقدمته بعد إسلامه أم قبله !

ومن الأقوال المأثورة ـــ أيضاً ـــ لغير المسلمين فى القرآن :

ـ « كريستى ويلسون » فى كتابه : « تقديم الإسلام » (١٩٥٠ م) :

« ليس بعد الإنجيل (من وجهة نظره المسيحية) إلا القرآن ؛ فهو أعظم الكتب الدينية تأثيراً ، وأكثرها احترامًا وتبجيلاً !! »

ـ « شيلليدى » فى كتابه « يسوع فى القرآن » (١٩١٣ م) :

« القرآن بمثابة الإنجيل المحمدى[٣] ، وهو أكثر الكتب المقدسة توقيراً بما فيها العهد القديم والعهد الجديد » .

◦ إعجاب وانبهار بكتاب الله الخاتم :

ولو استطردنا سنجد العديد من مثل هذه الآراء ؛ سواء من مؤيدى أو أعداء الإسلام على السواء ؛ تؤكد الإعجاب ، والانبهار بكتاب الله الخاتم : القرآن الكريم ، والذى رأى فيه الرعيل الأول ـــ على عهد محمد ﷺ ـــ الجَمال ، والجَزالةَ ، ونُبْلَ الدعوة ،

---

(٣) أبدينا رأينا فى هذه التسمية من قبل .

وشرف الرسالة ، برهاناً مُعجِزاً من الله تعالى ؛ فدخلوا فى دين الله أفواجاً .

ولكننا سنجد دائماً متشككاً مُعْرضاً ، يصمّ أذنيه ، ويُغلق عقله وقلبه دون شهادة التاريخ ، وأقوال المفكرين ، وربما تعلل بجهله بالعربية ليبرر عجز بصيرته ، وضعف إدراكه ما فى القرآن من إعجاز ، ولا يرى دليلاً على وجود الله ، ولا على إنزال القرآن على محمد ﷺ .

وربما تدارك ما يقول مؤكداً أنه يقدر وجاهة ما يحمله القرآن من فكر ، وتشريعات عملية ، وأخلاقيات رفيعة ، كما يحفظ لمحمد ﷺ قدره بين أعلام التاريخ الذين أخلصوا لرفعة البشر ؛ إلا أنه لا يجد دليلاً مقنعاً على تلقيه القرآن من لَدُنِ الحكيم العليم !

لقد تصدّى القرآن لهذا النوع من الحوار ، وخاطب الملحدين ، والمشككين ، والمتشككين ، والمرتابين ، والمترددين الذين آتاهم الله نصيباً من العلم — قل أو كثر — فظنوا أنهم قد بلغوا به من العلم نهايتَه !

تصدى القرآن الكريم لهم ليُقنعهم أن فوق كل ذى علم عليم ؛ فمهما ازداد علمُهم ، وسما فكرُهم ؛ فإنهم أمام إدراك حقائق الكون أقزام .

* أصل الكون :

دعونى أولاً أطرحْ سؤالاً على علماء الفلك القابعين فى مراصدهم

يجولون بأبصارهم في الكون ؛ خلال أقوى ما ابتكر العلم من مجاهر (تلسكوبات) :

أتدرون كيف بدأ الله خلق ما نراه من كون ؟

سيجيب أحدهم باعتداد : حَسَناً ـــ منذ بلايين السنين كَان الكونُ المادىّ كتلةً واحدة متماسكة ، وفجأة حدث انفجارٌ عظيم فى قلب هذه الكتلة ، فانطلقت نواتج الانفجار فى كل مكان ، فتكونت منها المجرات ، التى ما فَتِئت تسبح فى الفضاء اللانهائىّ !

وفى إحدى هذه المجرات تقع شمسُنا وتوابعُها من كواكب بما فيها الأرض التى نحيا عليها !

وهنا لا أملك إلا أن أتذكر الإشارة القرآنية إلى جرى الشمس المطّرد فى الكون ، فى اتجاه محدد ، لا يعلمُ منتهاهُ إلا الله ، وكأن علماءَ اليوم قد أُشربوا هذه الآيات من « سورة يٓس » :

﴿ والشمس تجرى لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم ۞ والقمر قدرناه منازلَ حتى عاد كالعرجون القديم ۞ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ [يٓس : ٣٨ ـ ٤٠] .

ثم يتابع عالم الفلك حديثَه :

« إن الكونَ يتمدّدُ باطّراد ، فتتباعدُ المجراتُ عنا سريعاً سريعاً ؛ ممّا يدعونا إلى تطوير مجاهرنا ، وتقويتها ، لنلاحق تلك المجرات قبلَ أن تغيب عن العيون » .

ثم يختم حديثه مؤكداً ـــ باعتداد ـــ ما وصل إليه العلمُ من دِقّةٍ

فى الملاحظة ، وإتقانٍ فى الحساب !

وهنا أفاجئه بسؤال :

أتظنُّ أن عربيًّا أميًّا عاش فى البداوةِ البدائية منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام يدرك ما توصلتم إليه من أفكار عن « بداية الخلق » و « تمدد الكون » و « حركة الشموس والمجرات ؟!

فيجيبنى بإشفاق واستخفاف :

« كلا أنَّى لمثله أن يفهم شيئاً من هذا ؟! » .

فأحسم الحوار بقولى :

إليك إذن ما أُوحِى إلى هذا النبى الأمى[٤] فى « سورة الأنبياء » عن بداية الخلق :

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السمٰوات والأرض كانتا رتقا فَفَتَقْنَٰهُمَا وجعلنا من الماء كل شىء حىّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

وما جاء فى « سورة الذاريات » عن الاتساع المستمر للكون :

﴿ والسماءَ بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون ﴾ [الذاريات · ٤٧] .

إن المخاطَب بتعبير « الذين كفروا » فى الآية الأولى هو أنتم أيها الملاحدة من العلماء ، وخاصة علماءَ الفلك والجغرافيا الذين

---

(٤) انظر ما جاء فى الإنجيل عن النبى الأمى المنتظر « أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ، ويقول : اقرأ هذا ، فيقول : لا أعرف الكتابة » (إشعياء ٢/٢٩) ، قارن هذه العبارة بقول محمد ﷺ عندما جاءه جبريل ، وقال له : « **اقرأ** » . فقال : « **ما أنا بقارىء** » وانظر كتاب المؤلف : « ماذا يقول الإنجيل عن محمد ﷺ » ؟!

وضعوا أيديهم على هذه الكشوف الكونية المبهرة ، وأعلنوها للملأ ، ثم زاغت أعينهم عن رؤية ذلك كله[٥] !

أخبرونى بالله عليكم : كيف يتأتّى لأمّى لم يعرف فى بيئته سوى شظَف الصحراء منذ أكثر من ١٤٠٠ عام أن يعرف شيئاً من هذه المعارف الكونية إلا بوحى من خالق الكون ذاته ومبدعه سبحانه ؟!

* الماء : أساس الحياة :

وأنتم يا علماءَ الحياة (البيولوجيا) يامن تكتشفون يوماً بعد يوم جوانب الإبداع فى خلق الكائنات وحياتها ــ أجيبونى : أين وكيف بدأت الحياة ؟!

سيجيب أحدهم ــ بثقة ــ كسميّه عالم الفلك من قبل :

« حسناً ؛ منذ بلايين السنين بدأت صورة بدائية للحياة المادية فى مياه البحر تولد عنها البروتوبلازم[٦] ، الذى نشأت منه الأميبا وحيدة الخلية ، ومن الماء ــ أيضاً ــ نشأت كل الأنواع ؛ أى أن الحياة لا تنشأ ، ولا تستمر إلا فى وجود الماء » ، فنمضى فى تساؤلنا :

---

(٥) فى قول مأثور لتوماس كارليل :

« فى خِضَمّ الأبحاث والتجارب نندمج فى معاملنا إلى الحد الذى ننسى فيه خالق الكون الأعظم !! » .

(٦) مادة البروتوبلازم هى أساس تكوين الخلايا الحية ، وفعّاليتها مرهونة بوجود الماء .

(ارجع فى ذلك لأى مرجع فى علوم الحيوان أو النبات) .

متى أدرك العلم أن الماء هو أساس الحياة ؟!

لاتخرج الإجابة عن سابقتها : « كان ذلك حديثاً فى القرن العشرين » فنمضى فى تساؤلنا :

أكان فى مقدور بشر منذ ١٤ قرناً ، ولو كان عالماً أو فيلسوفاً ، أو شاعراً ـــ فضلاً عَن أن يكون أمياً ـــ أنْ يتوصل إلى ما توصلتم إليه من مفاهيم ؟

ستكون الإجابة قطعاً ـــ كسابقتها ـــ بالنفى ، إذًا هاكُم ما جاء على لسان ابن البادية ﷺ من آيات القرآن الكريم ، فى ذلك الزمان البعيد :

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السمٰوات والأرض كانتا رتقا فَفَتَقْنَٰهُمَا وجعلنا من الماءِ كل شيء حيّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

ويتضح التعبير أكثر وأكثر فى هذه الآية التى يقول الله فيها :

﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ . [النور : ٤٥] .

لا ريبَ أن مِثلَ هذه الكلمات من خالق الكون العظيم العليم منذ ١٤ قرناً ـــ إنما هى موجهة أساساً إليكم يارجالَ العلمِ والمعرفة لتجيب عن بعض تساؤلاتكم فى عالم اليوم !

لقد كان المغزى العلمى لهذه الكلمات بعيداً تماماً عن ذهن من جرت على لسانه ﷺ بوحى من الله فى ذلك الزمان البعيد !

إن هذه الكلمات ما هي إلا دعوة لكم ياعلماء اليوم لتبادروا بالإيمان ، ولتكونوا فى طلائع المؤمنين ، وإلا : فما أضلكم إذا تُزيغُكم أهواءُ النفس عن المنطق السليم .

* زوجية النبات :

ثم يجىء دور علماء النبات والحيوان بصفة خاصة ؛ والعلوم الطبيعية بصفة عامة الذين وإن تبحروا وتعمقوا فى طبيعة الأشياء والكائنات ــ مازال منهم من ينكر وجود خالق كل شيء ! فنسألهم أن يُفَسِّروا لنا : من أين جاء الرسول الأمّى بهذه الآية وأمثالها ؟!

﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ [يـٰس : ٣٦] .

يقول : « عبد الله يوسف على » فى ترجمته الإنجليزية مفسّراً هذه الآيات :

« إن ظاهرة زوجية الكائنات تنطبق على كل الخلائق : الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والمخلوقات الأخرى التى قد لا تتبادر إلى الذهن ؛ فهناك أزواج من القوى المضادة فى الطبيعة كالشحنات الكهربائية السالبة والموجبة .. إلخ ، بل إن ذرات المواد جميعاً من نواة موجبة تحيطها '' إلكترونات '' سالبة ؛ أى أنها هى الأخرى أزواجٌ » .

□ المسلمون والإعجاز :

وبعد ... فآيات الكتاب الحكيم ، تتحدث عن نفسها ، وتنطق بالإعجاز العلمي الذى لا يُخْطِئه عقل عالم فَطِن ، وهذه شهادة عالم

فَرنسيّ معاصر :

« .... مقولة أن القرآن من تأليف محمد ــ ﷺ ــ لا يقبلها عقل ؛ إذ كيف يتصور عاقل أن إنساناً أُمّيًّا يتحول فجأة لينطق بأعظم النصوص الأدبية العربية إلى يومنا هذا ؟!، ثم كيف يأتى فى القرآن بحقائق وإشارات علمية يتعذر إدراكها لكل أهل زمانه ، ويعبر عنها بدقة علمية تامة » (موريس بوكاى فى كتابه القرآن والإنجيل والتوراة والمعارف الحديثة) .

لقد بدأ اهتمامى بدراسة الإعجاز إثر محاضرة سمعتها وأنا طالب غَضّ عام ١٩٤٣ ، ألقاها العلامة والداعية المفوه عبد العليم صِدّيقى أثناء جولته فى جنوب إفريقيا ، ثم نُشرت المحاضرة بعنوان : « دور المسلمين فى إحياء العلوم » (كتيب للاتحاد العالمى لجمعيات الدعوة الإسلامية بكراتشى)فأعادت إلى ذهنى من جديد ما أثارته أول مرة من حماس لدراسة الموضوع !

وأقتبس هنا فقراتٍ من تلك المحاضرة ، فى معرض الدعوة إلى دراسة القرآن من منظور العلم ، وفاءً وتقديراً لذلك الداعية العظيم .

« إن تأكيد القرآن الكريم على ضرورة دراسة العلوم الكونية لَظَاهرة فريدة فى عالم الأديان ؛ فآياته تلفت أنظارنا مراراً إلى تنوع الخلق وروعته ، وتحضُّنا على اكتساب المعرفة لنزداد إيماناً ، وتنبه الإنسان لأول مرة فى تاريخ العقائد المعروفة إلى أن العالم مسخر له ، وأن عليه أن يكدّ ويسعى للانتفاع بنعم الله .

وهو يحثنا على التأمل فى خلق الإنسان : تركيباً وسلوكاً

وأنواعاً ؛ وكذلك النبات : شكلاً وخواصّ وأنواعاً ؛ أى أنه يدعونا لدراسة '' **علوم البيولوجيا** ''

كما يدعونا لدراسة نظام الكون وما به من موادّ وطاقة ؛ وذلك مجال ''**علوم الفيزياء**''.

وإلى التأمل فى خواصّ المواد وتفاعلاتها ؛ وذلك مجال''**علوم الكيمياء**'' .

وإلى التعرف على طبقات الأرض وما حوت من معادن ، وما طرأ عليها ؛ وذلك مجال ''**علوم الجيولوجيا**'' .

وإلى استكشاف الأرض ، وما بها من بحار وأنهار وجبال وسهول ، وما يعمرها من حيوان ونبات ، وذلك مجال ''**علوم الجغرافيا**'' .

وإلى التدبر فى تعاقب الليل والنهار ، وتغير الفصول ، وحركات الكواكب ، ومواقع النجوم ، وذلك مجال ''**علوم الفلك**'' .

وأخيراً يحثنا على ملاحظة تقلب الرياح ، وإثارة السحب ، ونزول الأمطار وما إليها ، وذلك مجال ''**علم الأرصاد الجوية**'' .

ثم يمضى العلامة صِدّيقى ليقول :

لا غروَ إذن أن كان المسلمون ـــ لقرون عدة ـــ رواد العلوم والمعارف ، حتى دار الزمنُ دورتَه ، فغفلوا وتهاونوا ، فأُفلت منهم زمام القيادة إلى الغرب المادىّ الذى اندفع ليواصل ما بدأه المسلمون .

« لقد كان فضل المسلمين على المعارف الإنسانية « ثورة

كـبرى»، لم تدَعْ جانباً من جوانب المعرفة إلا أيقظته من سُبات ، وحازت فيه قصب السبق ؛ فرسالة المجتمع الإسلامى ـــ كما حددها القرآن ـــ هى اكتساب العلم ونشره ؛ ليصبح المؤمن الحق هو العالِم المثقف ، ولولا المسلمون ما بزغ فى الغرب عصر النهضة ، ثم عصر العلم » .

« إن كلّ ما نتلقاه اليوم من علوم الغرب ما هو إلا نتاج مباشر لجهود العلماء المسلمين ، والبشرية كلها مدينة بما قدموه » .

ثم يختتم العلامة المفوّه محاضرته القيمة بقوله :

« أؤكد أخيراً أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع الذى يقوم على الإسلام ، وبالتالى يستمد تصوره من الوحى القرآنى ، ومن هنا لا يكون المرء مسلماً إلا إذا آمن بالقرآن ، واتبع تعاليمه ، تلك التعاليم التى توجب على المسلم أن يتأمل العالم حوله ، حتى يقوده ما كشف من حقائق إلى توثيق الإيمان بالخالق الأعظم ؛ فالعلم والدراسة فى الإسلام ليسا غاية فى ذاتهما ، بل هما وسيلة إلى غاية أسمى ، وتلك بحق هى الغاية الأسمى للإنسانية فى نهاية الأمر ، والتى تتمثل فى : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ [البقرة : ١٥٦] ».

* الدُعاة والإعجاز :

لقد منّ الله عليّ بتلقّى هذه الكلمات الطيبات من العلامة صِدّيقى فى محاضرته عام ١٩٣٤ م ، وفى أواخر الثلاثينيات كنت أحفظها ؛ وأستعيدها ؛ وأُدخل عليها بعض التعديلات ، وتحمّست لدعوة الناس

إلى ما جاء بِها ؛ فاتفقت مع معهد تبشيرى على إلقائها فى مناظرة مع الطلبة والأساتذة ، ولم أكن أدرك فى ذلك الوقت جسامة مهمتى كداعية مبتدىء يدخل فى مناظرة مع مبشرين محترفين ، ولقد أنجانى من تلك المواجهة تدخُّل رئيسى ـــ المسلم ـــ فى العمل (كنت أعمل وقتها فى محل بمحطة للسكك الحديدية بجنوب إفريقيا) ، هدّدنى رئيسى هذا بالفصل إن مضيت قُدُماً فى إلقاء المحاضرة ، فآثرت السلامة ، ولم أدر وقتَها فداحة ما ارتكبته بهروبى من مواجهة الباطل ، ولا ريب أن رئيسى المسلم كان هو الآخر غافلاً عما تحمله الآيات التالية من الوعيد :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤]

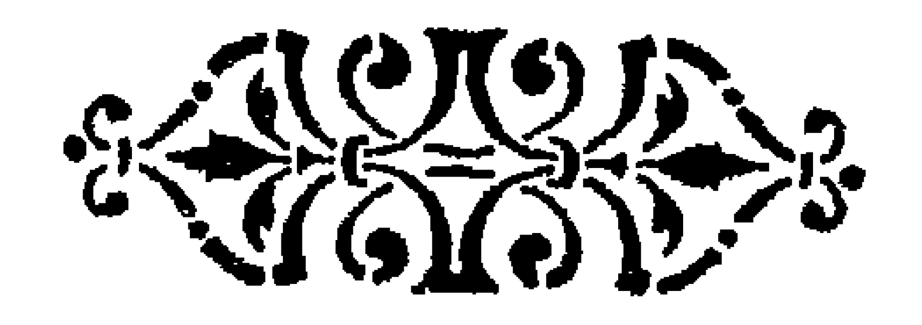
ولا شك ـــ للأسف ـــ أن هناك اليوم الملايين من المسلمين الذين يُلْجمهم الخوف على مصالحهم ومتاعهم الدنيوى عن المجاهرة بالدعوة إلى الإسلام ، وما يعرفون من الحق ، بل إن منهم من يتصدى لتثبيط الدعاة ، وإخماد دعواتهم تحت شعار : « مقاومة التطرف » ، ثم يدّعون الإيمان والتقوى ، أولئك الذين وصفهم الله بالقوم الفاسقين !

وبعد ... لقد لفت العلامة صديقى انتباهنا فى محاضرته إلى ضرورة الاهتمام بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم ؛ فى علوم الحياة ، والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والأرصاد وغيرها .

وفى السنوات الأخيرة تناول الكثيرون هذه الموضوعات من

أمثال : « موريس بوكاى » و « وكيث مور » و « الشيخ الزندانى » وغيرهم ، ولكن المجال لم يزل رحباً ممتدًا ، فالقرآن بحر من العلم ، وفى زمن التخصص هذا ينبغى على العلماء المسلمين ـــ كل فى تخصصه ـــ أن يسعوا لاكتناه جوانب الإعجاز ، وتقديمها فى دراسات تشبع نهم شباب المؤمنين وشيوخهم حتى تكون لدينا ـــ بإذن الله ـــ موسوعات للإعجاز القرآنى .

وختاماً أترك الحديث عن الإعجاز العلمى للعلماء المتخصصين ، لا من المسلمين فحسب ، بل من غير المسلمين أيضاً إن التزموا الحيدة ، وأوجه اهتمامى فى الفصول التالية إلى صور أخرى واضحة مباشرة لإعجاز القرآن ، يدركها بسهولة كل من يقرأ القرآن ، أو يستمع إليه بأذن صاغية ، وحسٍّ مرهف ، وعقل مفتوح .



الفصل الثالث

القرآن المعجزة القصصية





* اختلاف التعبير القرآنى عن غيره من النصوص :

يختلف التعبير القرآنى اختلافاً تامًّا عن كل النصوص الدينية الباقية بين أيدينا ، كما يختلف عن أى تعبير بشرى ، وهو تعبير معجز لكل من يقرؤه بتدبر ، وحتى ندرك هذا الوجه من إعجاز القرآن تعالوا أولاً نوضح الفرق بين « التعبير البشرى » ، و « التعبير القرآنى » ، وكنموذج للتعبير البشرى تعالوا نقلب صفحات « الكتاب المقدس » بعهديه : القديم والجديد ، والذى اشترك العديد من البشر فى وضع نصوصه .

تبدأ كل الروايات هناك بعبارات على نمط :

« يُحكى أن » أو « فى يوم من الأيام » أو غيرها مما تبدأ به عادة روايات البشر :

١ ــ **« فى البدء خلق الله السموات والأرض »** [التكوين١/١] .

٢ ــ **« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله »** [إنجيل يوحنا ١/١] .

٣ ــ **« كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم »**

[إنجيل متى ١/١] .

٤ ــ « قول الرب الذى صار إلى هوشع بن بئيرى فى أيام عزيا ويوثام وآحاز وحزقيا ملوك يهوذا وفى أيام يربعام بن يوآش ملك إسرائيل » [يوشع ١/١] .

٥ ــ « وكان بعد موت يشوع أن بنى إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يصعد إلى الكنعانيين أولاً لمحاربتهم » [القضاة ١/١] .

٦ ــ « حدث فى أيام حكم القُضاة أن صار جوع فى الأرض » [راعوث ١/١] .

٧ ــ « كان رجل من رامتايم صوفيم من جبل أفرايم اسمه : ألقانة بن يروحام بن أليهو بن توحو بن صوف ، هو أفرايمى » [صموئيل أول ١/١] .

٨ ــ « وكان بعد موت شاول ورجوع داود من مضاربة العمالقة أن داود أقام فى صقلغ يومين » . [صموئيل ثانى ١/١] .

٩ ــ « وشاخ الملك داود ، تقدم فى الأيام ، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ » . [الملوك أول ١/١] .

١٠ــ « وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم إرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته ، وبالكتابة أيضاً قائلاً » [عزرا ١/١] .

١١ــ « وحدث فى أحشويروش ، هو أحشويروش الذى ملك من الهند إلى كوش على مئة وسبع وعشرين كورة » [أستير ١/١] .

١٢ــ « كان فى سنة الثلاثين فى الشهر الرابع ، فى الخامس من

الشهر ، وانا من بين المسبيين عند نهر خابور أن السموات انفتحت ، فرأيت رؤى الله » [حزقيال ١/١] .

عبثاً تجد فى هذه النصوص تعبيراً يقرع الأسماع ، أو يجذب الانتباه ، فكلها تجرى مجرى المؤلفات الروائية التى نقرؤها كل يوم !

ولا غرْوَ فهكذا يفكر البشر ، ويتحدثون ، ويكتبون ، وهذه النصوص كلها مأخوذة من الكتاب المقدس(*) (طبعة جمعية الكتاب المقدس) .

ونلاحظ فيها : أن أحداث الروايات قد رتبت بالتسلسل الزمنى المألوف للروايات البشرية : الإصحاح كذا/سفر كذا من البداية إلى النهاية ، وكلها تبدأ بعبارات على نمط « يحكى أن » و « فى يوم من الأيام » وما إلى ذلك .

وأنصحك ـــ عزيزى القارىء ـــ أن تتصفح بتؤدة صفحات العهد القديم والجديد لتجد العديد والعديد من الأمثلة التى يتكرر فيها نفس النمط الروائى ، ولن أطيل عليكم حتى أعرض الصورة المقابلة : ''التعبير القصصى فى القرآن'' .

قصة التنزيل :

فى ليلة السابع والعشرين من رمضان كان نبى الإسلام محمد ـــ ﷺ ـــ فى غار حراء فى أطراف مكة ؛ حيث اعتاد أن يعتكف بحثاً عن الهدوء والسكينة ، يتأمل فى أحوال قومه ، وما هم فيه من سكر وزناً ووثنية ، وحروب لا تنقطع ، وقسوة ومظالم حتى أن

(*) انظر كتاب المؤلف : « هل الإنجيل كلام الله » ؟! .

المؤرخ الكبير « جيبون » يسجل على أولئك العرب فى كتابه : « صعود وسقوط الإمبراطورية الرومانية » قوله :

« إن أولئك الهمج المخابيل لا يختلفون فى شيء عن سائر الحيوانات » !!

لقد كان محمد المتحنث فى « غار حراء » يتشوق إلى هدى ينقذ الناس من الضلال ، فكان كثيراً ما يسعى إلى الغار : وحيداً معظم الوقت ، وأحياناً يظل بصحبة زوجه الرؤوم خديجة أم المؤمنين !

فى تلك الليلة ، وهى ليلة القدر التى تعم فيها الرحمة أرجاء الكائنات ، وتتصل ملائكة السماء بالأرض .. فى منتصف تلك الليلة ، انفتحت صفحات كتاب الله على محمد ﷺ ، إذ أتاه جبريل الملاك مرسلاً من الله عز وجل ليأمره بلفظ عربى مبين ﴿ اقرأ ﴾ ، والقراءة لغة تعنى : القراءة الصامتة لمكتوب ، أو النطق بالكلمات .

تملك النبى ﷺ الهلع ، واهتز من هول الموقف الذى لم يكن فى نظره بعد موقف احتفال أو تكريم ، وبصعوبة بالغة ارتعد قائلاً : « **ما أنا بقارىء !** »

فأعاد جبريل عليه الأمر ثانية : ﴿ **اقرأ** ﴾ ، فكرر النبى ﷺ قوله :

« **ما أنا بقارىء** » ، فيضمّه جبريل بشدة ويقول :

﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ [العلق : ١] .

وهنا فقط يدرك محمد ما هو مطلوب منه حتى ختام الرسالة : أن يردد كل ما يقوله جبريل ، ثم يمضى جبريل ليلقنه أربع آيات أخريات :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

ويبدأ بذلك وحى السماء ، ويتوالَى نزولُ آيات القرآن الكريم .

والآن .. لعلك تلحظ معى أيها القارىء أنى فى سردى للحادث الجلل ، لم أجد بدًّا من اتباع المألوف فى أسلوبنا ــ نحن البشر ــ ابتداءً من « ليلة السابع والعشرين .. إلى ... ويبدأ بذلك وحى السماء » مروراً بكل التفاصيل التى استقيتها من القرآن الكريم ، وكتب التراث والتاريخ ، ومن أفواه الأساتذة والمحاضرين ، وقد عرضتها من بدايتها إلى نهايتها فى خط مستقيم .

أما التعبير القرآنى فهو تعبير فريد ، نمطٌ مغاير تماماً لهذا النمط البشرى ، لا تجد في القرآن التعبيرات الروائية المألوفة للبشر مثل :

« تلقّى محمد الوحى أول ما تلَقّى عندما كان فى الأربعين من عمره » ؛ ولا « حيث كان معتكفًا في غار حراء » ؛ ولا : « رأى أمامه الملاك جبريل » ؛ أو تملك النبى ﷺ الهلع ، أو غير ذلك من ملابسات لقائه الأول مع جبريل ، ولا : إن « هذه الآيات الخمس هي أول ما نزل » ، ولا ما روته كتب السيرة النبوية أن «محمداً أسرع عائداً إلى بيته الذى يبعد حوالى خمسة كيلومترات

من مكة ، إلى زوجه الرؤوم خديجة ، وروى لها ما حدث وهو يرتجف ويقول : « زَمّلونى زملونى » .

كل هذه التعبيرات على نمط « يحكى أن .. » و « فى يوم من الأيام » يسمو النص القرآنى عن استخدامها ، فهو نص مغاير تماماً لأقوال البشر ، هو معجزة لا يحاكيها بشر .

تلحظ أيضاً — عزيزى القارىء — أن روايتى كأى رواية بشرية ؛ تبدأ دائماً من نقطة زمنية لتنتهى عند نقطة زمنية أخرى لاحقة ، وليس ذلك شأن القرآن ، فآيات الوحى الأولى : ﴿ اقرأ ﴾ التى بدأ بها نزول القرآن ، لا نجدها فى صدر المصحف الشريف ، بل نجدها بتوجيه من الله — سبحانه وتعالى — فى السورة السادسة والتسعين ، وهى « سورة العلق » .

هذا النمط الفريد المغاير لكلام البشر لا نجده إلا فى القرآن الكريم ، ولا نجده فى غيره من الكتب السماوية ؛ لأن القرآن هو الكتاب الوحيد الذى حفظه الله — تعالى — من التحريف والتعديل منذ نزوله إلى يومنا هذا !

* مع عالم نفسانى :

أتيح لى أن أتحدث بمعلوماتى عن بداية الوحى مع شاب كندى كنت أصطحبه فى زيارة سياحية لأكبر مساجد نصف الكرة الجنوبى ، وعلمت منه أنه يقوم بدراسات عليا فى علم النفس ؛ فسألته على الفور إن كان لديه تفسير لموقف رجل أُمّى ؛ لا يعرف القراءة ولا الكتابة ؛ ثم يُطلَبُ منه أول ما يطلب ، أن يقرأ ، فيظل منذئذ يردد كلاماً أكبر من إدراكه ، وأبلغ من لسانه ، كلاماً

لا يضاهيه قول بشر ، طوال ثلاثة وعشرين عاماً[1].

اعترف «عالم النفس» بأن ذلك يبعث على الحيرة البالغة ، فبادرته بقولي : علينا إذن أن نقر بصدق رسالة الإسلام ، أو بأنها ليست من صنع البشر ، ثم تلوت عليه (معنى) هذه الآيات من « سورة النجم » :

﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحىٌ يوحى . علمه شديد القوى ﴾
[النجم : ١ ـــ ٥]

كما أمر الله نبيه أن يردد على الناس :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلىّ أنمّا إلـٰهكم إلـٰه واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠] .

* إعجـاز صحفـى :

ما إن أقابل صحفياً قادماً إلى المركز الدولى للدعوة الإسلامية حتى أعرض عليه أن أبرهن على « إعجاز التعبير القرآنى » ، وهنا ألخص له أولاً قصة موسى عليه السلام بأسلوبنا البشرى المألوف : أسلوب « يحكى أن » و « فى يوم من الأيام » مع الإيجاز الشديد هكذا :

---

(١) انظر شرح عبارة الإنجيل « أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » (تثنية ١٨/١٨) فى كتاب المؤلف : « ماذا يقول الإنجيل عن محمد » .

« قابل موسى عليه السلام رجلين يتصارعان : أحدهما من قبيلته ، والآخر من أعدائه ، فبادر بمساعدة اليهودى فى قتاله مع المصرى ، وفى خضم الصراع صفع موسى المصرى صفعة شديدة ، فأرداه قتيلاً ، فاضطر موسى عليه السلام إلى الهرب من البلاد إلى صحراء سيناء ، وعندما وصل « أرض مَدْين » وجد فتاتين تطلبان العون فيما تقومان به من عمل ، فاستجاب لهما ، وعرض عليه « يثرون » والد الفتاتين أن يبقى ليعمل مساعداً له ، ثم زوّجه إحدى ابنتيه ، وبعد ثمان سنوات بدأ الملل يتسرب إلى نفس موسى عليه السلام مما عاناه من شظف عيش طويل بالصحراء ـــ بعد أن ألف الحياة الرغدة خلال نشأته فى قصر فرعون ؛ ثم حياته فى المدينة ، وما فيها من صخب وحياة ، فحن إلى تغيير نمط الحياة ، واستأذن صهره الذى كان رجلاً واقعىّ النزعة يتفهم دوافع موسى ، فأذن له بالرحيل .

رحل موسى مع زوجه وأبنائه ، وأخذ معه نصيبه من الغنم والماعز ، وبعد فترة من الزمان عاد إلى سيناء لزيارة أهل زوجته ، إلا أنه ضل الطريق ، حتى نفد ما كان معه من اللحم المقدد ، ولم يعد معه من زاد سوى الخبز المجفف الذى يصنعه اليهود ، ورغم وفرة ما معه من غنم وماعز ؛ فلم تكن المشكلة فى ذبحها ؛ بل فى إيقاد نار ليشوى بها اللحم ، فالبحث عن حجر لإيقاد الشرارة ؛ وحطب للوقود أمر عسير فى الصحراء (لم تكن هناك ولاعات او أعواد ثقاب فى تلك الأيام) ، فأصبح فى حيرة شديدة من أمره تزداد يوماً بعد يوم ، ولا حَلّ يبدو فى الأفق » .

لعلى قد أثقلت عليكم بهذا السرد الطويل رغم أنى لم أسرد إلا

الحقائق المجردة ــ على سبيل التمهيد ــ ودون تنميق أو إطناب لأصل بهذا التمهيد إلى صلب القصة ، ولكنى أستميح القارىء عذراً لأنقله نقلة أوضح بها مفهوم التفوق الصحفى قبل مواصلة ما بدأناه .

أقيم على مسافة ٣٠ كيلومتر شمالىّ مدينة دربان بجنوب أفريقيا ، وقد اعتدت أن أتخذ الطريق الساحلىّ فى طريقى إلى المدينة كل يوم ، وعند تقاطع الأستاد الساحلى الكبير يقف دائماً بائع صحف ، يعرض صحيفة شهيرة ، وبجانبه لوحة كبيرة تبرز عناوين أهم الأخبار ، وبنظرة سريعة إلى هذه العناوين لا أجد فيها ما يغرينى بالحصول على الصحيفة ، ولكنى بمجرد وصولى إلى قلب المدينة بعد ذلك تجذبنى لوحات إعلان أخرى لنفس الصحيفة ؛ فأقبل على شرائها !

سألت نفسى مرة عن السر فى تغيير قرارى مرة تلو المرة فاكتشفت أن الإعلان فى المدينة أكثر جاذبية لى، وخاصة فى ذلك الجزء الذى يقطنه أسيويون أمثالى ، وأدركت أن صياغة الإعلان فى الطريق الساحلى موجهة إلى الأوروبيين الذين يكثر ترددهم على الساحل ، وهكذا فإن كل إعلان قد صيغ بحيث يجذب اهتمام طائفة من الطوائف العنصرية (التى تعيش فى مناطق منفصلة فى جنوب أفريقيا) .

نخرج من هذا بأن التفوق فى التعبير الصحفى يكمن فى فهم نفسية المخاطب ، واختيار الألفاظ والتركيبات الأكثر تأثيراً دون زيادة أو نقصان .

* عودة إلى تحليل التعبير القرآنى :

وتعالَوْا الآن نحلل التعبير القرآنى فى سرده لقصة موسى عليه السلام لنرى إعجاز التعبير القصصى :

تنزل الآيات على محمد ﷺ ليواجه بها جبهات متعددة : المشركين والمنافقين واليهود والنصارى فى مواجهة القِلّة المؤمنة ! فانظر كيف يصاغ التعبير القرآنى ليقرع الأسماع ، ويشد انتباه هذه الجبهات المتنافرة فى آن واحد ؛ يقرعها بعبارة :

﴿ وهل أتاك حديث موسى ﴾ [طه : ٩] .

عبارة قصيرة تثير كل النفوس ، وتشحنها بالترقب لما يتبعها من سياق ، فالمسلمون يتحرقون شوقاً لإطفاء ظمئهم من التنزيل الحكيم ، واليهود والنصارى كلهم آذان صاغية يتأهبون للسخرية مما عسى أن يلقيه رجل أمى لا يعرف عن موسى ما يعرفون فى تراثهم وكتاباتهم .

أما المشركون والمنافقون ، فيستخفهم المرح والسرور انتظاراً للموقعة الكلامية بين المسلمين وأهل الكتاب .

الكل إذن أصبح آذاناً صاغية ، فيمضى الوحى فى عبارة أخرى قصيرة : **﴿ إذ رأى ناراً ﴾** قمة الإثارة الدرامية !

ثم تمضى القصة بنفس الأسلوب الأخّاذ :

﴿ إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ [طه : ١٠] .

تأمل هذا الأسلوب البرق (التلغراف) الذى ينساب كقذائف تشد الانتباه ؛ إنه أسلوب يضاهى أسمى ما وصل إليه التعبير الصحفى فى

مجال الإعلان ! ذلك الفن الذى يتعلم فيه الصحفى أول ما يتعلم أن يتبع « الأسلوب البرقى » فى التعبير .

ولا ننسى أن « فن الإعلان » الذى تفوقت فيه الولايات المتحدة (والتى تضم أكبر المجتمعات المسيحية وأكبر المجتمعات اليهودية فى العالم) لم يظهر إلى الوجود إلا فى هذا القرن العشرين ، ففى أى معهد صحفى — بالله عليك — تعلم محمد بن عبد الله هذا الفن ؟!

الجواب واضح : هو أن هذه العبارات ليست من صنع محمد ﷺ ، الذى كان يردد حرفياً ما يصبه جبريل عليه السلام فى أذنه وقلبه .

كذلك لم يكن هناك ثمة نصٌّ عربى للإنجيل أو التوراة فى ذلك الزمان حتى يقتبس منه محمد ﷺ .

ومع ذلك ، ولكى نقطع الشك باليقين ، تعالَوْا نقارن هذا السرد القرآنى لقصة سيدنا موسى بما جاء فى نص الكتاب المقدس فى مطلع سفر الخروج :

« وهذه أسماء بنى إسرائيل الذين جاءوا إلى مصر مع يعقوب ، جاء كل إنسان وبيته ، رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالى وجاد وأشير ، وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفساً ، ولكن يوسف كان فى مصر ، ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل » (سفر الخروج ١/١ — ٧) .

إن أدنى مقارنة لتنطق بالاختلاف الواضح بين التعبير البشرى فى

الكتاب المقدس (أسلوب يحكى أنّ) ، وبين التعبير الإلٰهى المعجز فى القرآن ؛ ذلك التعبير الذى يتجاوز كثيراً الحدود البشرية لقدرة الرسول ومعرفته !

* إلى مزيد من التذوق :

تعالوا أخيراً نستكمل تذوقنا لخصوصية التعبير القصصى الإلٰهى فى قصة موسى ــ عليه السلام ــ وقد ضل طريقه فى صحراء سيناء ، وهو يتطلع إلى نار يشوى بها طعامه ، أو قوم يهدونه الطريق ، ولكن الله قد أعدّه لرسالة أسمى من شىّ الطعام والاهتداء إلى المكان فآنس حيرته بنار تلوح فى ظلمة الصحراء، ليست ناراً كنار البشر ، لعلها ترمز إلى ما يتأجج فى أرواح البشر من شوق فطرى إلى الحق ؛ كما قد ترمز إلى التوجه نحو مصدر الهدى الأوحد ؛ الله سبحانه وتعالى ، أى كأنها نار روحية ، يعلن بها الله تعالى مولد رسالة موسى واصطفاءه إياه .

اقرأ وتأمل الآيات القرآنية ، وتذوق قمة الإعجاز فى التعبير ، والإيقاع القصير المتناغم :

﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى * فلما أتاها نودى ياموسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك[٢] إنك بالوادى

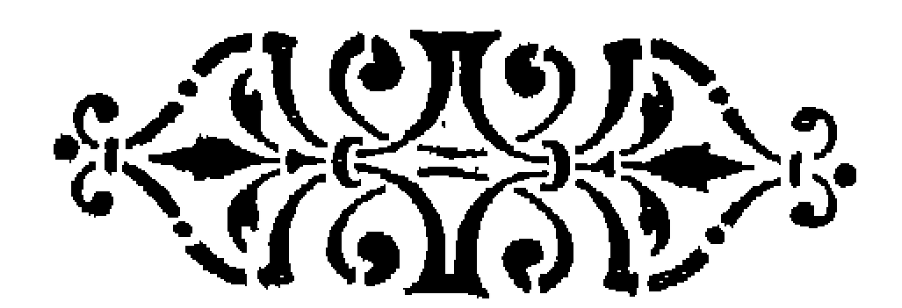
---

(٢) خلع النعلين : علامة احترام ، وتوقير ، وربما كان يرمز أيضاً ــ مجازا ــ إلى أن يتخلص موسى عليه السلام من اهتماماته ورغباته الدنيوية متوجهاً بكل حواسه إلى تلقى رسالة الله تعالى .

المقدس طُوًى[3] * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ [طه : ٩ ـ ١٣] .

وختاماً لا أتمالك نفسى من التعجب والإشفاق ممن يقرأ هذا التعبير القرآنى فلا يهتز طرباً وإعجاباً ، إلا من ختم الله على قلبه وإحساسه ، فأصبح لا يتذوق إلا الغث من القول ، وحكايات العَوَامّ ؛ كبعض المستشرقين[4] الذين مروا على القرآن سريعاً ، ثم أنكروا ما به من إعجاز قصصى يفوق أبلغ الفنون الصحفية ، نقله إلينا النبى الأمى محمد ﷺ نقلاً حرفياً دون تعديل أو تبديل .

إنه معجزة ما بعدها معجزة ، أليس كذلك ؟

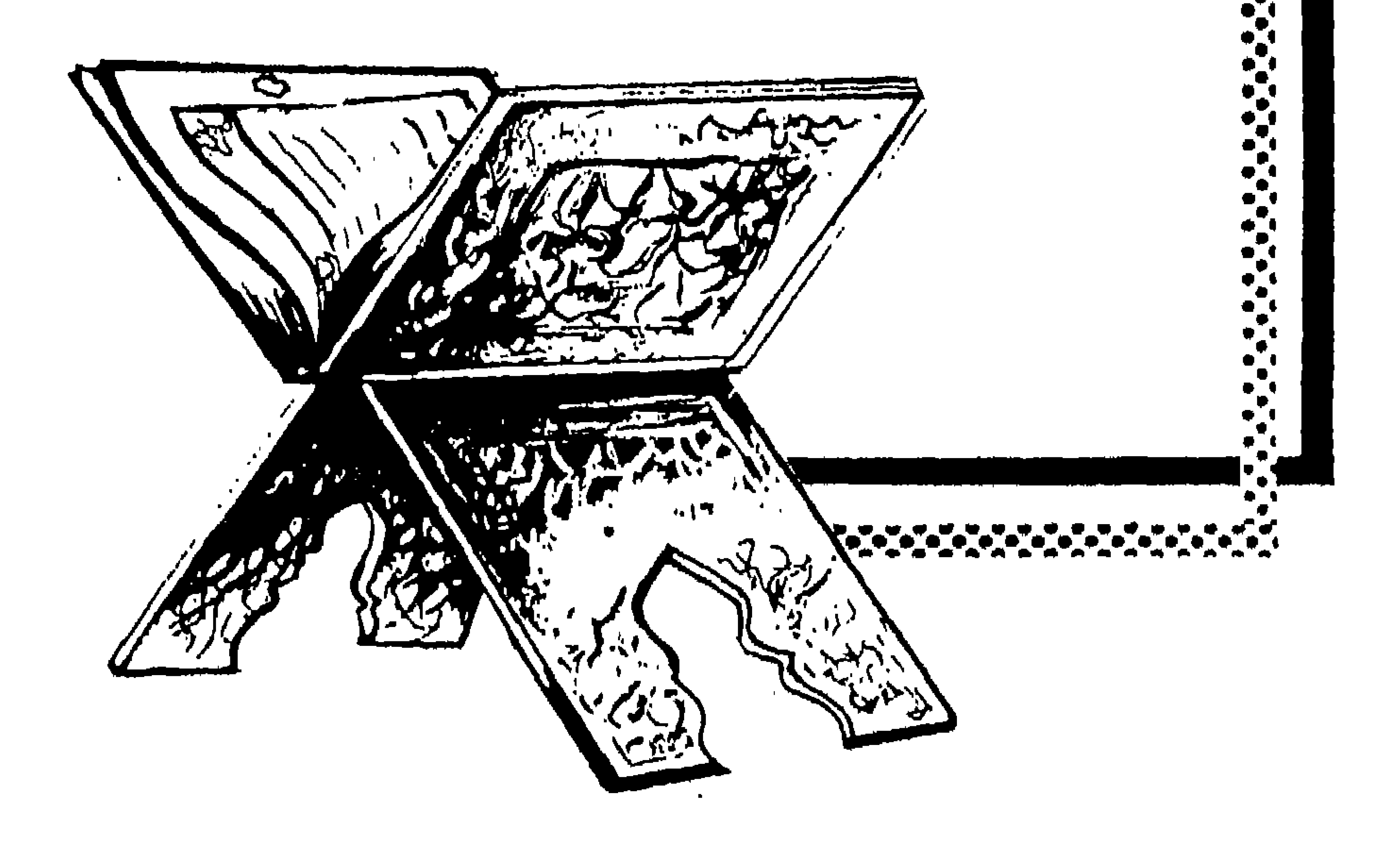


(٣) طوى : هو الوادى الذى يرتفع فوقه الجبل الذى تلقى عنده موسى عليه السلام تعاليم السماء .

(٤) من نماذج بذاءات المستشرقين يقول توماس كارليل فى القرآن :
« كتاب مُمِلّ مضطرب فَجّ ركيك : غباء لا يحتمل !! » .
حاشا لله ، وتبت يدا من كتب هذا الكلام وفُض فوه ! .

الفصل الرابع

القرآن معجزة البلاغة





في العربية نقول : « البلاغة الإيجاز »[1] ، وأوجز الكلام هو ما نسميه « البرقيات » . يتسم القرآن بهذا الأسلوب البرقى وخاصة عندما يعرض تعاليمه فى صورة « سؤال وجواب » ، وهاك بعض الأمثلة :

*** فى الخمر والميسر :**

﴿ **يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

ألا ترى كيف تصل كلمات الله إلى الهدف مباشرة ؟ وهل هناك أسلوب أقرب وصولاً منه إلى عقل السائل وقلبه ؟

الجواب : كلا ؛ اللّهم إلا لدى المكابرين الذين يخاطبهم الله فى قوله :

﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ [الرعد : ١٦] .

وحتى ندرك ما فى الأسلوب القرآنى من إعجاز فوق مستوى

(١) إضافة للمترجم .

البشر تعالَوْا نقارن أسلوب القرآن بأحاديث محمد ﷺ فى تناولهما لنفس الموضوع : « الخمر » .

فى رواية ابن أنس عن رسول الله ﷺ فى النهى عن التعامل مع الخمر بأى صورة من الصور يقول الرسول ﷺ :

« لعن فى الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشترِى لها ، والمشترى له »[٢] .

كما روى عنه أيضاً قوله :

« ما أسكر كثيره فقليله حرام »[٣] .

أى أن الإسلام لم يتهاون فى رشفة ، ولا قطرة من ذلك الرجس اللعين .

قارن بين آيات القرآن ، وبين كلمات الرسول ﷺ تجد الفارق شاسعاً ، فى الأسلوب والبناء ؛ بحيث يستحيل أن يكون كاتب هذا هو قائل تلك[٤] !

ثم قارن أيضاً بين تشريع الله الحكيم الذى حفظه الله إلى يومنا هذا فى القرآن ، وبين ما تجده فى نصوص الكتاب المقدس ؛ فى نصائح

---

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الأشربة برقم [٣٣٨١] لأنس بن مالك .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب الأشربة [٣] والنسائى فى سننه كتاب الأشربة [٢٥] وابن ماجه فى سننه كتاب الأشربة .

(٤) على الرغم من أن الرسول ﷺ « **أوتى جوامع الكلم** » وكان أفصح العرب وأبلغهم ، أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التعبير حديث برقم ١١ ومسلم كتاب المساجد حديث رقم [٥] .

« بولس الرسول » إلى تيموثاوس :

« لا تكن فى ما بعد شراب ماء بل استعمل خمراً قليلاً من أجل مَعِدتك وأسقامك الكثيرة » (رسائل تيموثاوس ٥/٢٣) .

وكذلك على لسان سليمان فى وصاياه الدموية إلى جنده لاستعباد الأمم وإخضاعها :

« أعطوا مسكراً لهالك ، وخمراً لمُرّى لنفس ، يشرب وينسى فقره ، ولا يذكر تعبه بعد » (أمثال ٣١/٦ ــ ٧) .

لتعلم أى تحريف بشرى انتاب تلك الرسالات .

* فى الأهلـة :

ننتقل الآن إلى نموذج جديد من البلاغة القرآنية متمثلة فى « أسلوب البرقيات » :

﴿ يسألونك عن الأهلّة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

يقـول « عبد الله يوسف على » مفسراً فى ترجمته الإنجليزية :«كان لدى الأقدمين ــ وحتى يومنا هذا ــ خرافات كثيرة حول القمر وأحواله ، ينبذ القرآن كل تلك الخرافات(٥) ويدعونا للنظر إلى القمر كوسيلة للتقويم الزمنى الذى يتيسر للبشر اتباعه بدقة فى كل زمان

---

(٥) جاء فى الحديث أيضاً : « إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آية من آيات الله ؛ فإذا رأيتموهما فصلوا » . [أخرجه البخارى فى كتاب الكسوف ٣ ، ٩ ، ٢٨ ، والنسائى كسوف ٣ ، ١٢ ، ١٦] .

ومكان ، ويتخذه الإسلام أساساً لتوقيت عبادة الصوم والحج » .

* فى البرّ :

قال ــ تعالى ــ:

﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ . [البقرة : ٢١٥]

فى هذه الآية ثلاثة أسئلة ، يجيب عنها القرآن بنفس الإيجاز المعجز :

١ ــ بم نتصدق ؟

٢ ــ لمن نتصدق ؟

٣ ــ كيف نعطى الصدقة ؟

للإجابة عن السؤال الأول : علينا أن نتصدق بأى شىء طيب نافع مفيد قيم مالاً كان أو متاعاً ، أو نقدّم العون لضعيف عاجز ، أو النصيحة ، أو مجرد الكلمة الطيبة ، كل ذلك صدقة ! أما إن نتصدق بشىء لا قيمة له ولا نفع فليس ذلك بصدقة .

كما لا يجوز التصدق بما قد يؤدى إلى ضرر كالرشوة ، أو تقديم السلاح لمعتوه أو منحرف ، كل ذلك أوجزته الآية فى عبارة بليغة :

﴿ ما أنفقتم من خير ﴾ .

وللإجابة عن السؤال الثانى : عليك أولاً أن تقدّم الصدقة لمن تجب عليك نفقته ، ثم لمن هم فى أشد الحاجة إليها بعد ذلك .

أما إجابة السؤال الثالث : فيكفيك فى الصدقة أن يراها الخالق

العظيم بعيداً عن الرياء ، على أن تعطيها راضيًّا مُؤْثراً غيرك على نفسك متجردًا من الأثرة والطمع .

* فــى الــروح :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروحُ من أمرِ ربى وما أوتيتُم من العلم إلا قليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

أكرر بلا ملل : أن القرآن فريد فى أسلوبه ، متميز فى بلاغته ــ كما تنطق هذه الآية ــ عن كل كتاب عرفته البشرية !! أسلوب يصل دائماً ومباشرة إلى الهدف ، وإن شئت فقل إلى « بيت القصيد » دون لف أو دوران ، ودون استطرادات مملة ، أو تفاصيل غثة !

لن تجد بين دفّتيه رواياتٍ مطولةً كالتى ينتج منها أهل الفن « الأفلام السينمائية » مثل : « شمشون ودليلة » أو « الوصايا العشر » أو « سبارتكوس » .

* محمد - ﷺ - فى القرآن :

قبل أن أنتقل إلى نموذج آخر للبلاغة القرآنية ؛ تعالَوْا نقلب صفحات القرآن بحثاً عن أى ذكر لسيرة محمد ﷺ ؛ عن أبيه وأمه ؛ وصباه ؛ وعن أزواجه وصحابته .

عبثاً نعثر على أى ذكر مباشر لهؤلاء ؛ بينما نجد سورة كاملة تحمل اسم « مريم »[٦] أم عيسى عليه السلام ، ونجد أن عيسى قد ذكر

---

(٦) قد يقول قائل : إن هناك سورة اسمها « سورة محمد » . وأقول : وتسمى « سورة القتال » أيضاً : ومع هذا فإنها لا تتعرض لسيرته ، وإنما : لما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم ؛ وذكر فيها القتال .

خمساً وعشرين مرة في القرآن بينما لم يذكر محمد ﷺ إلا خمس مرات !

وهذا لا يعني أن شأن محمد فى القرآن أقل ، بل لذلك هدف كبير هو : تبيان ما أُلصق بالمسيح عليه السلام وأمه منْ افتراءات تتصل بحمله ومولده ، ونبوته ، وبطبيعته وموته ؛ جاء القرآن ليصححها ، ويبرىء رسل الله وأنبياءه ، أما بالنسبة لمحمد ﷺ ، فالقرآن شيء ، وسيرة النبى ﷺ وأحاديثه شيء آخر ؛ فالقرآن ليس من صنع محمد حتى يتحدث عن نفسه وأهله وصحابته ؛ بل هو رسالة رب الكون ، حملها وبلغها رسوله الأمين إلى البشر أجمعين .

* فى اليوم الآخر :

﴿ يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجلّيها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الأعراف : ١٨٧] .

هاك نموذج آخر لبلاغة الإيجاز القرآنى ، ويكفيك أن تقارن هذا النص « بالإصحاح ١٣ » من « إنجيل مرقص » حيث يجىء ذكر « يوم القيامة » فى ٣٧ جملة ، ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه آية واحدة فى القرآن ، ويكفى هذا المثال دليلاً على تميز النص القرآنى عن النصوص البشرية جمعاء !

ولو مضينا فى إيراد الأمثلة والنماذج والمقارنات لكتبنا مجلدات(٧) !

---

(٧) [وقد كتبت مجلدات ومجلدات فى الإعجاز البلاغى فى القرآن] ، المترجم .

* السـورة الفيصـل :

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفُواً أحد ﴾ [الإخلاص : ١ ـ ٤] .

هذه هى سورة الإخلاص ، وهى أقصر سور القرآن الكريم بآياتها الأربع ، بل إن السورة مجتمعة أقصر من كثير من الآيات المذكورة فى هذا الجزء .

لهذه السورة مكانة خاصة فى الإسلام ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « **قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن** » .

ولا تستمد « سورة الإخلاص » هذه المكانة من صوتها وإيقاعها وتعبيرها المرَكّز الجيّاش الذى يثير الوجدان ، ويرهف الحِسّ فحسب ؛ بل تستمد مكانتها من أنها جمعت فى ألفاظ قليلة جوهر العقيدة كلها ، ومعانيها هى المحَكّ والفيصل بين الحق والباطل الذى توزن به الأفكار والمفاهيم ليستبين ما بها من هدى أو ضلال ، تماماً كما يتخذ صائغ الذهب حجراً خاصاً يميز به الذهب الخالص من الزائف !

* اللوح المحفوظ :

بينما كنت أستعد للسفر إلى « زامبيا » لإلقاء سلسلة من المحاضرات فى منتصف ١٩٧٥ م تلقيت مكالمة من « لوساكا » تؤكد إرسال تذكرة السفر الخاصة بى إلى « شركة خطوط جنوب أفريقيا » فتوجهت إلى مقر الشركة فى قلب مدينة « دربى » ، وأخبرت موظف الاستعلامات بحاجتى ، فأشار إلى مكاتب الحجز

بالحاسب الإلكترونى التى يجلس إليها قرابة اثنتى عشرة موظفة ، فتساءلت إلى أيهن أتوجه ؟

فأجاب بشيء من الغلظة لاتتفق مع براءة حيرتى :

ـ توجه إلى من شئت !

فتقدمت إلى إحداهن متأملاً فى قرارة نفسى : لقد سافرت مراراً من قبل ، ولكننى لا أفهم الآن كيف يستوى أن أجد تذكرتى المرسلة من « لوساكا » لدى هذه الموظفة أو تلك !

المهم .. أن الموظفة كتبت شيئاً على الحاسب ، ثم أخبرتنى أن هناك فعلاً « تذكرة » فى انتظارى ؛ ثم مضت تستكمل بيانات الحجز ، وتدخلها إلى الحاسب ، بعد أن حددتُ لها الموعد المطلوب ، ونبهتُها إلى الأهمية القصوى لوصولى ــ أيًّا كان خط السير ــ حوالى الساعة الثالثة عصراً ؛ حيث سيكون فى انتظارى فى مطار « لوساكا » الصحفيون ورجال الإعلام ؛ لتغطية هذه الزيارة ، فعادت لتكتب حروفاً قليلة على الحاسب ، ثم التفتت إلىّ قائلة :

'' من الصعب تلبية رغبتك ؛ لأن ذلك يتطلب تحويل التذكرة من خطوط « زامبيا » إلى شركة أخرى ، والاتصال بخطوط « زامبيا » معطل اليوم بمناسبة « عيدهم القومى » !!''

وانقلبت بذلك خططى رأساً على عقب ، ولكنى مضيت أسألها : من أين استقت كل هذه المعلومات ؟!

فأجابتنى بأن ذلك يتم عن طريق « الحاسب الرئيسى » فى « جوهانسبرج » ، وأن هناك عشرات من الحاسبات الفرعية فى

مكاتب الشركة المنتشرة فى أنحاء البلاد ، كلها تتصل بالحاسب الرئيسى متى تشاء ، لتستعلم عن الأماكن الخالية ، وتحجزها لمن يشاء !

فى طريق عودتى تلاحقت الأفكار فى ذهنى ، وذكرنى ما سمعته عن الحاسب الرئيسى الذى تستقر فيه كل البيانات بتأملاتى فى اللوح المحفوظ الذى نزل منه الوحى على محمد ﷺ :

﴿ بل هو قرآن مجيد * فى لوحٍ محفوظ ﴾

[البروج : ٢١ – ٢٢]

إن فكرة الحاسب الرئيسى الذى تستقر فيه كل البيانات تقرب إلى أفهامنا القاصرة تصور « اللوح المحفوظ » !

ولكننى أبادر فأؤكد أن هذا اللوح لا بد أنه مختلف تماماً عن الألواح التى خطت عليها « الوصايا العشر » إلى موسى عليه السلام كما يختلف عن « شاشات الحاسبات » وكل ما نعرف من أجهزة صنعها علمنا البشرى المحدود ، إنه « لَوْح » لا ولن نُحيطَ بكُنْهه !

* نصارى نجران :

حين استقر الإسلام فى المدينة المنورة ، وعم صداه أرجاء الجزيرة العربية ترامى إلى سمع نصارى « نجران » قرب حدود اليمن أن نبياً قد ظهر فى بلاد العرب يعلن أنه يتلقى الوحى من الله تعالى ، ويجهر بالدعوة إلى الدين الجديد ، فأرسلوا وفداً إلى المدينة ليناقشوا النبى ﷺ فيما جاء به ، وينظروا فى دعوته فى ضوء ما لديهم من معرفة بالله وبالأديان !

أحسن المسلمون استقبالهم ، حيث استضافوهم ثلاثة أيام بلياليها في مسجد الرسول ــ الذي كان في ذلك الوقت بناء بسيطاً من الطين مسقفاً بسَعَفِ النخيل !

وجرى بينهم وبين رسول الله ﷺ حوار طويل أوردته « كتب السيرة » ، وخلال حوارهم وجهوا إلى رسول الله ﷺ سؤالاً قاطعاً :

« أنبئنا يامحمد من هو الله ؟ » .

لم يتلعثم الرسول ﷺ ، ولم يحاور ويداوِر ، ولم يتلاعب بالألفاظ والأفكار ، ولم يكن في حاجة إلى التسويف حتى يأتيه الجواب ، فقد جاء الوحي لتوه ، وكأنه قد اتصل مباشرة بـ « اللوح المحفوظ » (الحاسب الرئيسي على سبيل التقريب)[8] .

أقول ثانية : « كأنه » لمجرد التبسيط الشديد ، وتلا محمد ﷺ : « سورة الإخلاص »[9] :

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كُفواً أحد ﴾ .

ومن هذه النقطة عاد أُسلوب الحوار من جديد إلى المستوى البشري المعتاد .

الفرق بين الأسلوبين لا تخطئه أذن عربي فصيح :

كلام الله شيء ، وكلام محمد شيء آخر تماماً !

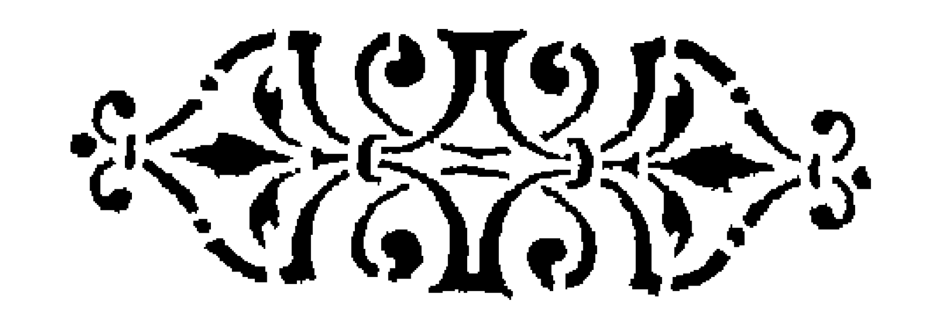
---

(٨) ولله المثل الأعلى .

(٩) ارجع إلى أسباب النزول للنيسابوري ، والسيوطي ، وتفسير ابن كثير .

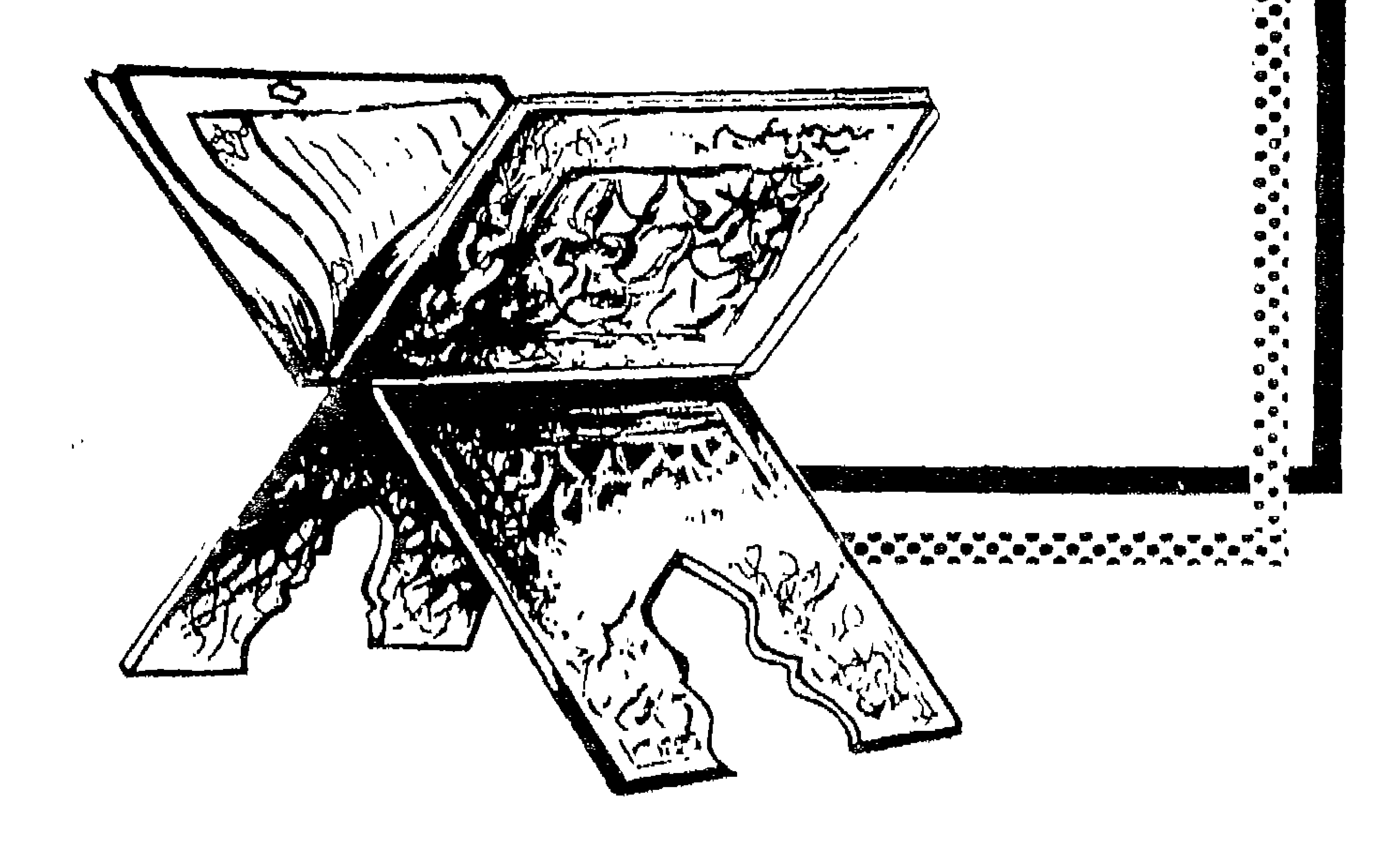
آيات الله تنطلق على لسان محمد ﷺ وكأن لسانه الشريف « مكبر صوت » متصل بـ « اللوح المحفوظ » الذى اختزن الله فيه القرآن الكريم عند نزوله جملة واحدة ليلة القدر ؛ فى مطلع الدعوة ؛ حيث قدر له أن يتوالى نزول آياته من « اللوح المحفوظ » إلى محمد ﷺ منَجَّماً (مفرقاً) طبقاً لما شاء الله من أحداث ومناسبات وترتيب .

أعود فأؤكد أن « سورة الإخلاص » وحدها تقف شامخة متحدية أى نصٍّ دينى ، وإذا كانت هذه السورة القصيرة تلخص جوهر العقيدة ، وتمثل الفيصل بين الحق والباطل ، فإن كل ما جاء فى القرآن عداها إنما هو تفصيل وبيان لهذا الجوهر والفيصل ؛ الذى يحدد لنا حقائق الألوهية ؛ ويحمى البشرية من ضلال التصور الذى انزلقت إليه مراراً وتكراراً بابتعادها عن عقيدة الحق ومنهج الله !



الفصل الخامس

أسماء الله المعجزة





أسماء الله المعجزة

* ولله الأسماء الحسنى !

الله ـــ جل جلاله ـــ لا يضاهيه شيء فى ذاته أو صفاته :

هو الأحَد .. وهو الصَّمَد .. وهو الذى لم يكن له مثيل قط ؛ كما بينت لنا سورة الإخلاص .

فكيف إذن تحيط عقولنا القاصرة بما ليس كمثله شيء ؟!

إننا إنما ندركه ونتصوره فى صفاته وأسمائه ، وقد هدانا القرآن الكريم ـ خاتمُ كتب الله إلى البشر ـ والحديث النبوى الشريف إلى تسع وتسعين صفة لله تعالى ؛ يتوجها اسم الجلالة : الله .

وهذه الصفات التى نطلق عليها « أسماء الله الحسنى » إنما تُرَصِّعُ سور القرآن وآياته كقلادة جميلة من فرائد الدر تتوسطها الجوهرة الكبرى « اسم الجلالة » اقرأ معى شطراً من هذه القلادة :

﴿ هو الله الذى لا إلـه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ۞ هو الله الذى لا إلـه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ۞ هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ٣٢ ـــ ٣٤] .

قرأنا فى هاتين الآيتين « ثلاثة عشر اسماً » من أسماء الله الحسنى ، ولا يملك قارىء لهذه الأسماء ـــ فضلاً عن بقية الأسماء الحسنى ـــ إلا أن يدرك ما فيها من جمال وجلال وكمال ، سواء قرأها بالعربية ، أو قرأ نظائرها المترجمة ، مع ملاحظة أن الترجمة قد لا تحيط بما فى الألفاظ العربية من معنى ومبنى !

بالله عليكم كيف يتأتى لأمّى فى أمة أميّة منذ أربعة عشر قرناً أن يبتكر هذه القائمة من الأسماء ، ولم تكن ثمة معاجم ولا موسوعات ، فى جزيرة العرب يستقى منها محمد ﷺ هذه الألفاظ ؟!

يستحيل إذن أن يأتى بها محمد ﷺ من عقله وخياله ؛ بل هى وحى يوحى إليه من خارج ذاته ، وأتحدى أى مثقف أو عالم فى دين من الأديان ـــ غير الإسلام ـــ وبأى لغة ينطق : أن يجلس ويقدح ذهنه ويكتب ما يتصوره من صفات لله تتجاوز أصابع اليدين ما لم يقتبسها من القرآن أو المراجع الإسلامية ، تلك إذن معجزة من معجزات القرآن !

* ومعجزة أخرى !

ومعجزة أخرى لهذه الأسماء والصفات أنها لا تضم صفة «الأب» ، تسعة وتسعون اسماً تفيض بكل معانى الرحمة والقدرة والتفرد ولا نجد من بينها كلمة « أب » رغم قربها من الأذهان ، ورغم شيوعها فى الكتب السماوية الأخرى ؛ تلك الكتب التى جاء الإسلام ليصحح ما اعتراها من تحريف بشرى ، ويستبعد هذه الكلمة تماماً من قاموس الأسماء الحسنى ! يردد المسيحيون فى صلواتهم :

« أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض »

(إنجيل متى ٦/٩)

فى ظاهر الأمر لا يبدو فى هذه الصلوات ما يتعارض مع حقائق الإسلام ، بل إننا بسماحة الإسلام نعدها كلمات طيبات ، وإن كنا لا نجد فيها ما نعرف من الأسماء والصفات التى تقرب مفهوم « الله » إلى الأذهان !

بل إننا لو قلبنا صفحات الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد لا نجد لله اسماً سوى : « الأب » أو « الرب » .

وهنا يفترق الإسلام ، عن كل من المسيحية واليهودية المعاصرة !

لقد كان تحريف معنى كلمة « الأب » فى الفكر المسيحى هو بداية « خط الانحراف » الذى أدى فى نهاية الأمر بعد قرون من دعوة السيد المسيح ــ عليه السلام ــ إلى قولهم : بأن « المسيح هو ابن الله » الذى اتخذه ولداً ، وأرسله ليكفر عن « خطيئة آدم » بينما لو رجعنا إلى الأناجيل ذاتها لوجدنا مواضع كثيرة تذكر الله أباً لكل خَلْقِه : أى راعياً وحافظاً باراً بمخلوقاته ، فهو بنص الإنجيل : ''أبوكم'' ، وعلى لسان المسيح : ''أبى وأبوكم'' .

وهو بنص الإنجيل أيضاً أب لآدم ويعقوب ، وسليمان وداود .. إلخ .

وكذلك بنفس المعنى هو أب للمسيح عليه السلام كغيره من البشر ، ولم يرد فى الإنجيل ما يفيد : أن أبوة الله للمسيح تختلف فى شىء عن أبوته للخلائق أجمعين .

إذن هو تغير المعنى وتحريف الدلالة تماماً كما تخرج بعض الكلمات عن مدلولاتها الأصلية بتغير الظروف والزمان ، ونضرب لذلك مثلاً بكلمة : « رفيق » وصفة « مَرِح » :

الكلمة الأولى لغة : تعنى الصداقة والصحبة ، قبل أن يتحول معناها ليصبح لها ذلك المدلول السياسي حين تطلق على الشيوعيين ومن نحا نحوهم .

وكذلك صفة « المرح » التى تشير إلى البهجة والانطلاق أصبح مقابلها الإنجليزى (GAY) كلمة بذيئة فى الغرب ؛إن أطلقت على رجل أو امرأة فهى إشارة إلى الشذوذ الجنسى !

هى حقيقة معجزة إذن أن يستبعد القرآن من أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين كلمة « الأب » ، التى لا غبار عليها فى مدلولها الأصلى ، حتى يقى المسلمين ما انزلقت إليه الديانات السابقة :

﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ...

وقالت النصارى المسيح ابن الله ...

ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل .. قاتلهم الله أنّى يؤفكون ﴾ [التوبة : ٣٠] .

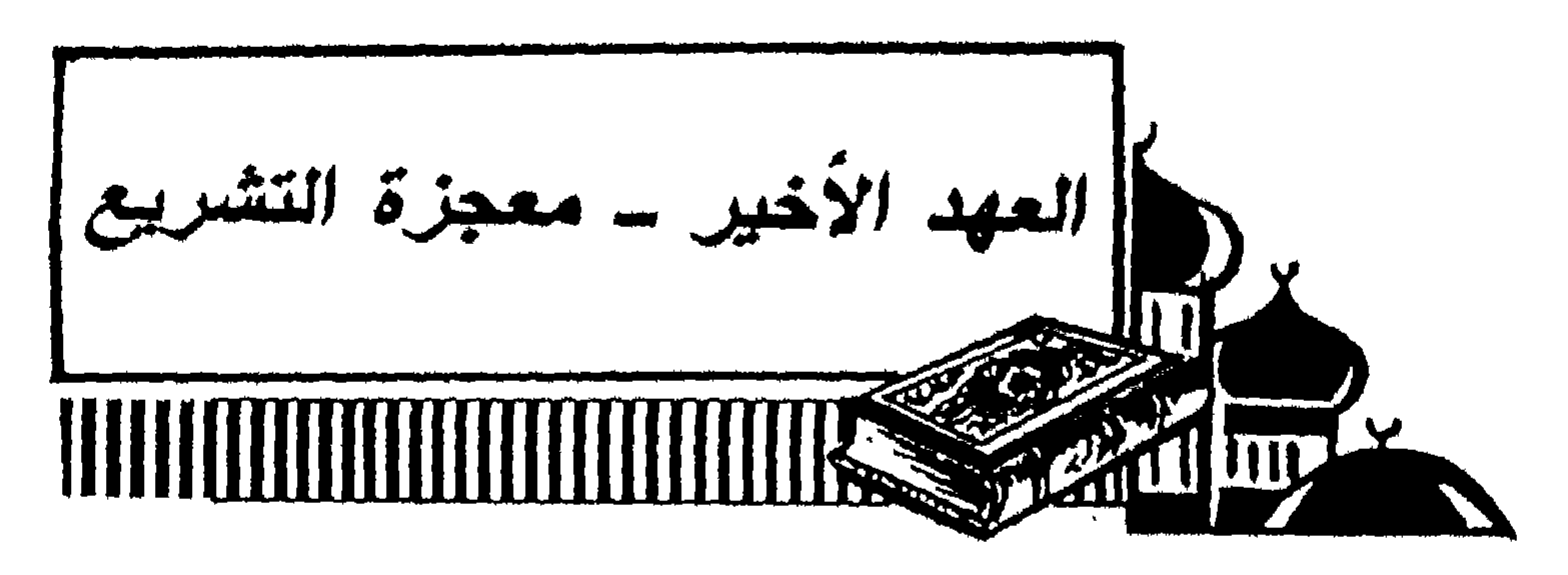


الفصل السادس

العهد الأخير

معجزة التشريع





القرآن معجزة الإسلام الكبرى ؛ حيثما قلبت فكرك فيه ، وجدت في كل وجه له معجزة !

وقد حاولت فى « هذا الكتاب » أن أعرض بعض وجوه الإعجاز التى بهرتنى كإنسان عادى ، ولا شك أن المجال المفتوح لمن هم أفضل منى ــ من العلماء والباحثين وفقهاء المسلمين ــ ليجْلوا لنا المزيد من أوجه الإعجاز ، ولعل عمرى يمتد حتى أرى وأقطف ثمار جهودهم .

* الإعجاز التشريعى :

وقبل أن أختم كتابى هذا أعرض لوجه آخر لإعجاز القرآن هو الإعجاز التشريعى :

منذ سنوات مضت فقد « ملك سوازيلاند » زوجته المتوجة ؛ فعكف رجال الكنائس على البحث فى التشريعات المسيحية لتحديد الفترة التى يجوز لملك البلاد بعدها أن يتخذ ملكة جديدة .

ولما كان للملك ثمان زوجات أخريات فقد تفرع البحث إلى قضية أخرى شائعة :

متى يجوز لأرملة ــ الملك أو غيره ــ أن تتزوج من جديد ؟!

وأمر الملك بعقد مَجْمع عام لكل كنائس المملكة أملا فى الاتفاق على رأى !

سعيت لحضور تلك المناظرة الممتعة ، ومعى أخ مسلم صديق من « سوازيلاند » فأذن لنا .

وفى إحدى الجلسات احتدم النقاش ، وتوالى المتحدثون يتبارون فى مواهبهم الخطابية ، وكأن كلاً منهم « بيلى جراهام » أو « جيمى سواجرت »[1] !

فتجاوب السامعون مع كل متحدث بالتصفيق الحاد ، وكلما قام متحدث نقض ماقاله سابقوه ، واستهزأ بعقولهم وأقدارهم ، وبعد ساعات طوال جاء دورى فى الحديث ، فبدأت بقولى :

مازلنا منذ الصباح الباكر ندور حول أنفسنا فى حلقة مفرغة بحثاً عن إجابة شافية لقضية مدة العدة للأرملة !

والكل يستشهد مرة تلو المرة بالعهد القديم ، ثم بالعهد الجديد ، وهكذا بلا طائل !، والسبب هو أن أحداً منا لم يلجأ إلى هذا الكتاب : « المصحف الشريف » الذى رفعته فوق رأسى ليراه الجميع ، الذى أسميه مجازاً « العهد الأخير » !

* العهد الأخير !

العهد الأخير ــ ياسادة ــ هو القرآن الكريم ، ففى سورته

---

(1) له مناظرات شهيرة مع المؤلف .

الثانية : « سورة البقرة » (الآية رقم ٢٣٤) سنجد الإجابة الحكيمة :

﴿ والذين يُتوفّون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فإذا بلغن أجلهن فلا جُناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعلمون خبير ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

ثم تساءلت : أربعة أشهر وعشر أيام ، أتدرون لماذا ؟ صاحوا جميعاً : لا ؛ فاستطردت لأشرح الحكمة المعجزة فى هذا التشريع ، فأشرت إلى آية سابقة فى سورة البقرة تحدد عدة المطلقة بثلاثة شهور للتأكد تماماً من عدم حملها[٢] :

﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر .. ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

ولقد زيدت المدة للأرملة ، فوق عدة المطلقة أربعين يوماً إضافية ، ولم يكن ذلك اعتباطاً أو ضربة لازب ، وإنما لحكمة تبينها الآية الآتية :

﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرًّا إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجله واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ [البقرة : ٢٣٥] .

---

(٢) وذلك فى حد ذاته إعجاز علمى ، وحكمته الإلهية تكمن فى أن المرأة الحامل قد تستحيض مرة أو مرتين ، ويستحيل علمياً أن تستحيض الثالثة (المترجم)

الحكمة إذن هي حماية الأرملة من استغلال الرجل لظروفها ونفسيتها ، بعد أن فقدت أيضاً بمضى الزمن جمالها ورونقها ؛ للإيقاع بها فى زواج غير متكافىء يضر بمصالح أبنائها مع زوج لا يحفظ لها قدرها ؛ فهى فى حاجة إلى فسحة من الوقت تستعيد فيها توازنها ، وصفاء نفسها وفكرها ، وتناقش الأمر بهدوء مع أهلها ، وتلتمس النصح والرأى قبل اتخاذ القرار السليم .

وبعد ...

هل كان محمد ــ ﷺ ــ عالماً فى الاجتماع ، أو خبيراً فى التشريع حتى يجىء بهذا التشريع الحكيم ؟! كلا بل هو تشريع خالق الكون العليم الحكيم ، وما محمد إلا مبلغ[3] يتلقى الوحى من اللوح المحفوظ ليردده بلا تبديل ولا تحريف إلى البشرية جمعاء .

﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ [النجم : ٤] .

ثم يستطرد القرآن متحدياً أى شك أو ريبة :

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾
[الإسراء : ٨٨] .

* القرآن يتحدى :

لقد تحدى القرآن البشرية جمعاء عبر تاريخها الطويل منذ فجر الدعوة إلى قيام الساعة : أن يأتوا بمثله ؛ فشهد التاريخ بعجزهم ،

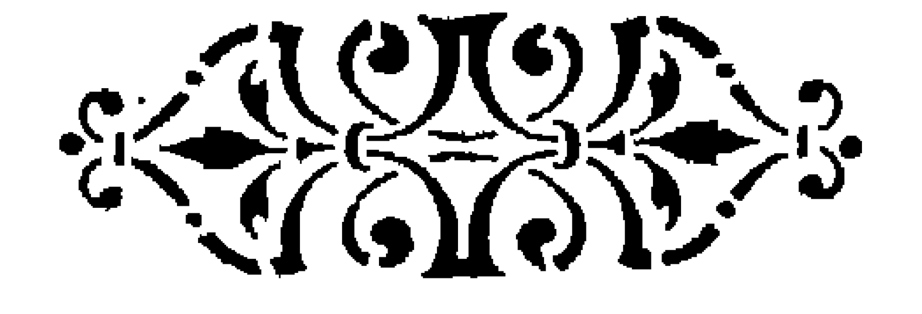
---

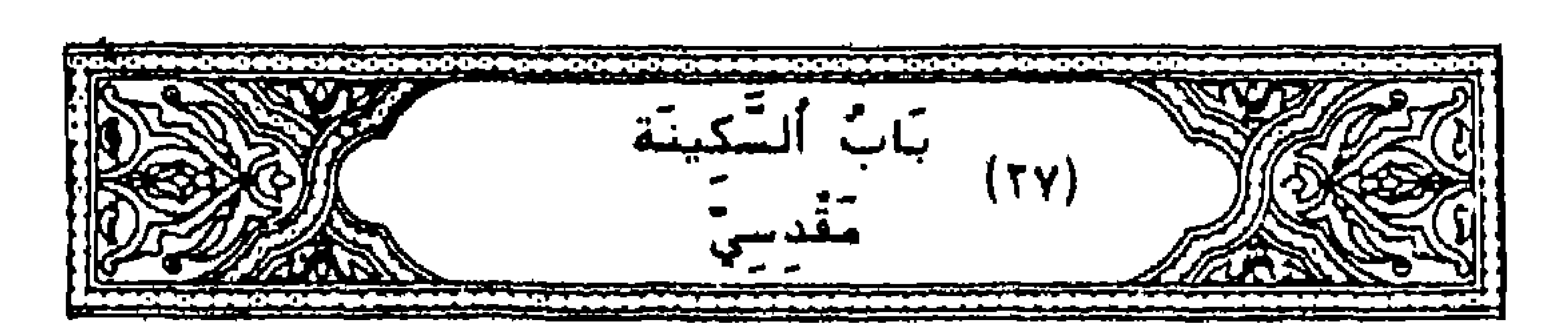
(٣) وفى هذا يقول ربنا سبحانه : **﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾** . [المائدة : ٦٧] .

وأثبت أن القرآن « معجزة المعجزات الشامخة » التى تتكسر على سفحها كل ادعاءات البشر ، ومحاولات التضليل التى لم تلق إلا السخرية والإشفاق ، مثلها فى ذلك مثل عبث الأطفال وصياحهم ؛ ابتداء من مسيلمة الكذاب الذى ظن أنه يضاهى القرآن بعبارات مثل :

« الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب قصير ، وخرطوم طويل » .

إلى أحدث ما ظهر فى أسواق النشر من طبعة عربية جديدة للإنجيل باسم « سيرة المسيح بلسان عربى فصيح » حاول كاتبوها أن يقلدوا ألفاظ القرآن وعباراته ، ولم ينسوا افتتاح كل جزء بعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وتقليد شكل السور والآيات بالمصحف ، وأترك للقارىء الحكم على مثل هذه المحاولات !

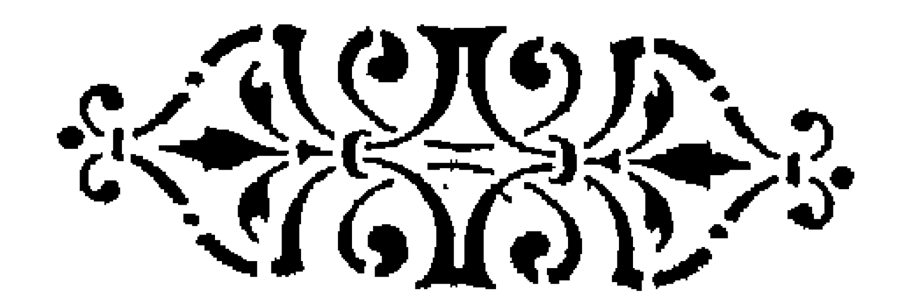




بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

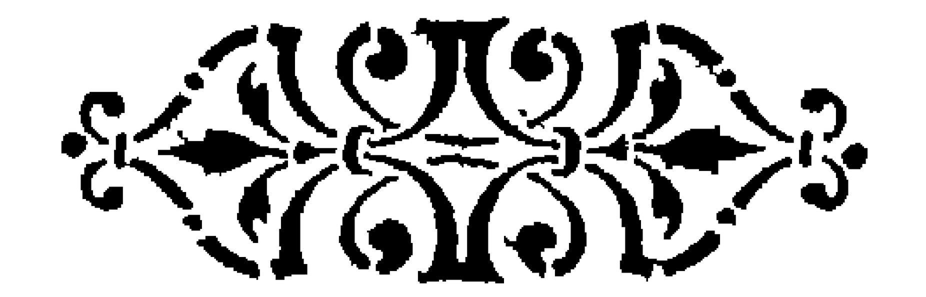
(١) قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ حَقًّا فَآمِنُوا بِيَ وَلَا تَخَافُوا إِنَّ لَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ جَنَّاتٍ نُزُلًا (٢) فَلَأَسْبِقَنَّكُمْ إِلَى ٱللَّهِ لِأُعِدَّهَا لَكُمْ ثُمَّ لَآتِيَنَّكُمْ نَزْلَةً أُخْرَى (٣) وَإِنَّكُمْ لَتَعْرِفُونَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى قِبْلَتِيَ ٱلْعُلْيَا فَقَالَ لَهُ تُومَا ٱلْحَوَارِيُّ مَوْلَانَا إِنَّا لَا نَمْلِكُ مِنْ ذَٰلِكَ عِلْمًا (٤) فَقَالَ لَهُ عِيسَى أَنَا هُوَ ٱلصِّرَاطُ إِلَى ٱللَّهِ حَقًّا وَمِنْ دُونِي لَا تَسْتَطِيعُونَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (٥) وَمَنْ عَرَفَنِي فَكَأَنَّمَا عَرَفَ ٱللَّهَ وَهَا إِنَّكُمْ مُنْذُ

صورة صفحة من الإنجيل الجديد



﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

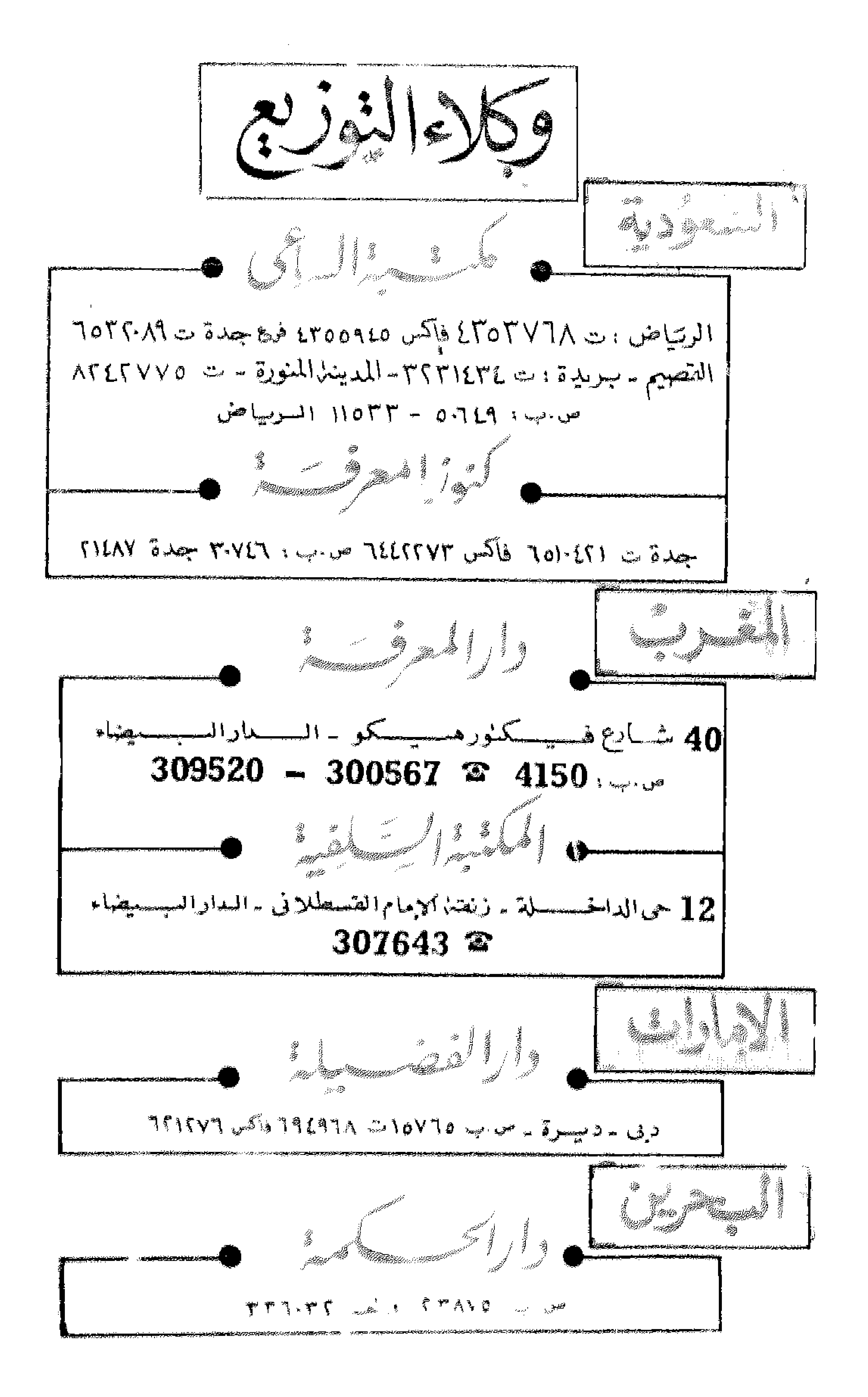
الآية ٧٨ من آل عمران



● الفهرس ●

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٤٩٧٦ / ١٩٩٢



وكلاء التوزيع
السعودية
مكتبة الراعي
الرياض : ت ٤٣٥٣٧٦٨ فاكس ٤٣٥٥٩٤٥ فرع جدة ت ٦٥٣٢٠٨٩
القصيم - بريدة : ت ٣٢٣١٤٣٤ - المدينة المنورة - ت ٨٣٤٢٧٧٥
ص.ب : ٥٠٦٤٩ - ١١٥٣٣ الرياض
كنوز المعرفة
جدة ت ٦٥١٠٤٢١ فاكس ٦٤٤٢٢٧٣ ص.ب : ٣٠٧٤٦ جدة ٢١٤٨٧
المغرب
دار المعرفة
40 شارع فيكتور هيكو - الدار البيضاء
ص.ب : 4150 ☎ 300567 - 309520
المكتبة السلفية
12 حي الداخلة - زنقة الإمام القسطلاني - الدار البيضاء
☎ 307643
الإمارات
دار الفضيلة
دبي - ديرة - ص.ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦
البحرين
دار الحكمة
ص.ب ٢٣٨١٥ هاتف ٣٣٦٠٣٢